الفصل الأول

في تعريف الخطابة وأركانها وأنواعها وشواهدها ومقوماتها

obeikandl.com

obeikandl.com

ما هي الخطابة

عرفت الخطابة تعريفات كثيرة لا يبتعد بعضها عن بعض كثيراً، ولكن منها ما ليس جامعاً لكل أنواع الخطابة وجزئياتها، ومنها ما ليس مانعاً لدخول أشياء أخرىٰ معها مثل الوصايا والدروس.

لكن أوضح ما قيل في تعريف الخطابة أنها عرّفت بـ: فن مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة.

وهذا التعريف يقوم على عناصر معينة:

1 ـ أن يكون الحديث مخاطبة لجمهور من الناس، فإذا كان الشخص يتحدث إلى فرد أو اثنين؛ فإنه عادة لا يحتاج إلى لهجة خطابية، ويكفيه أن يشرح المعنى أو الفكرة التي يريدها في صوت هادىء وطريقة مألوفة في كل الأحاديث، فهذا ليس خطبة.

2 ـ أن يكون بطريقة إلقائية، وهذا يعني جهارة الصوت وتكييفه باختلاف نبراته وتجسيم المعاني التي تتضمنها الخطبة، وإبداء التأثر بها، ومن مكملات هذه الطريقة التي تصحبها إشارات باليد أو بغير اليد، كما يبدي الخطيب انفعالاته بما يقول، فكل ذلك يثير السامعين ويوجه عواطفهم نحوه ويجعلهم أكثر استجابة لرأيه.

3 ـ أن يكون الحديث مقنعاً بحيث يشتمل على أدلة وبراهين تثبت صحة الفكرة التي يدعو إليها الحديث، فإذا خلت الخطبة من هذه الأدلة فإنها لا تزيد على أن تكون إبداء رأي، وقد تكون فاشلة لأنها لا تؤدي إلى الغرض الذي قيلت من أجله، والخطيب الناجح يشرح الأدلة التي يسوقها شرحاً وافياً يكثر فيه من المترادفات ويعيد بعض الجمل، ويلح عليها لتركيز معانٍ خاصة وجزئيات وأمثلة توضح الفكرة وتثبتها في أذهان سامعيه.

4 ـ أن يتوافر في الخطبة عنصر الاستمالة وهذا يعني توجيه العواطف واستجابة أصحابها للرأي الذي تدعو إليه الخطبة لأن السامع قد يقتنع بفكرة ما، ولكن لا يعنيه

أن ينفذها أو أن تتحقّق من غيره فلا يسعىٰ إلى تحقيقها؛ هذا العنصر من أهم عناصر الخطبة لأنه هو الذي يحقق الغرض المطلوب منها، فاللصوص الوشاة والنمامون وفاقدو الأمانة في أعمالهم وغيرهم من منحرفي السلوك يدركون فساد أعمالهم وسوءها ولكنهم مع ذلك يمارسونها، بل أكثر من ذلك أن الشخص الكذاب قد يشرح أضرار الكذب وسوء نتيجته بأكثر ممّا يتحدث الواعظ والمربيّ، وكذلك يتحدث اللصوص عن أضرار السرقات والمهملات عن الأضرار.

الخطابة فن من فنون الأدب

الخطابة نوع من النثر، وبهذا التعريف الذي سبق تختلف من الكتابة وعن النثر الفني إذ لا شرط هناك لوجود الإقناع والاستمالة، وقد تكون الإصابة وصفاً لمنظرٍ ما، أو صفة لحالة نفسية للكاتب، أو حديثاً عن شيء رآه فلا يشملها تعريف الخطبة، ولكن الخطبة قد تحتوي عبارات كثيرة من النثر الفني فيها جمال التركيب وحسن الحلية اللفظية كالسجع والطباق، وقد يرفع هذا قيمة الخطبة ويجعلها أشد تأثيراً، لكن الخطبة في جملتها ليست نثراً فنياً يقوم علىٰ تجديد العبارات والتأنق في الأساليب وغالباً لا يتفق هذا مع الإقناع والاستمالة.

والخطبة تختلف عن الشعر، لا يرجع هذا الاختلاف إلى أن الشعر موزون مقفىٰ والخطبة ليست كذلك فقط، بل يرجع فوق هذا وأهم منه، إلى أن الخطبة تتناول المسائل الجادة الواقعية، وتقوم على الحقائق الملموسة، بينما يقوم الشعر أساساً على الخيال والعاطفة، فإن تناول أمراً واقعياً تناوله من جانب العاطفة أيضاً، ولهذا قد يحلي الخطيب خطبته بشيء من الشعر لإثارة سامعيه وإيقاظ عواطفهم، كما قد يستعمل أسلوباً شعرياً يقوم أيضاً على الخيال والعاطفة ولكن قوام الخطبة وكيانها يقوم على الإقناع والاستمالة.

هب أن خطيباً وشاعراً يرثيان عظيماً من الناس، فماذا يقول كل منهما؟ أما الشاعر فإنه يعمد إلى استجاشة عواطف الناس بأسلوب تشيع فيه الرقة الموسيقية ويعرض صوراً من حياته ومواقفه المشرفة، وما له من ميزات وفضائل، ولكن كلامه في هذا أدىٰ إلى الإشارة والتلميح كأنه مجرد تذكرة للناس، وربما انتقده في رأي أو أبدى معارضته فيه وذلك أيضاً يكون على سبيل العرض السريع الموجز، ولا بد في كل ذلك من جوانب الخيالية التي تثير عاطفة السامعين وتشعرهم بقدر الميت ومكانته على الرغم مما يذكر من نقده ومخالفته في بعض الآراء والمواقف.

وأما الخطيب فهو بين حالتين، قد يذكر شيئاً من تاريخ الفقيد وتكوينه العلمي أو

السياسي وميوله وطباعه، ثم ينتهي إلى آثاره ومزاياه، وما خسر الناس بموته من انقطاع أعماله وآثاره، وفي هذه الحالة يسمىٰ كلامه تأبيناً وليس خطبة لأنه مجرد سرد أخبار وتاريخ وليس تحت إقناع ولا استمالة لمبدأ ما، فهو خارج نطاق الخطابة وتسمية خطبة عمل مجازي، وقد يضيف إلى ما سبق أن المبادىء التي كان يعمل لها ذات أهمية في حياة قومه وأنهم لا بد أن يتابعوها ويعملوا على بقائها فيكون حديثه خطبة لأنها حينئذٍ اشتملت على الإقناع بإحياء مبادئه والاستمالة لمتابعتها.

الخطابة أشد الأنواع الأدبية إقناعاً وتأثيراً

إن الخطابة أشد الأنواع الأدبية إقناعاً وتأثيراً وهي تعبر عن عقيدة الخطيب ورأيه في مشكلات الوجود وتشتد باشتداد الأزمات التي ترتبط ارتباطاً جذرياً بمصير الجماعة وتقرير مستقبلها وترجحها بين النزعات والتيارات التي تحدق بها، فهي ربيبة السلاح تواكبه وتعوض عنه، وفي أحيان كثيرة تشحذه وتحفزه وتقتحم ملاحم الدمار والتقتيل والمنكر وما إلى ذلك مما ألف الناس دعوته بطولة ومجداً، فغايتها هي أن تحول الأفكار الذهنية الجامدة إلى عواطف ينفعل بها السامع ويتصرف بتأثيرها تصرفاً لا قبل له به فيما يكون في حالة اليقين العادي.

ومثالاً على ذلك أثر خطبة الرسولﷺ. في حادث الإفك على نفوس السامعين وتحريك مشاعرهم، وذلك بعد أن تقصىٰ الحقيقة فدعا بريرة جارية السيدة عائشة رضي الله عنها فقال: «يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريبك؟» فقالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً أغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتي الداجن فتأكله، فقام رسول اللهﷺ من يومه خطيباً في الناس فاستعذر من عبد الله بن أبي سلول الذي تولىٰ نشر الخبر، فقال في خطبته: «من يعذرني من رجل بلغ أذاه في أهلي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي».. فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله: أنا والله أعذرك منه وإن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك.

وهنا يبدو لنا مدىٰ تأثير الخطبة في تحريك النفوس وإثارة العواطف في ذلك الموقف إزاء هذا الخبر الذي نقل إحساس وشعور الرسولﷺ إلى مشاعر السامعين.

ـ والواقع أن الأفكار التي تقطن الذهن مهما سمت وشرفت تبقىٰ دون تأثير على تصرف الإنسان إذا لم تنتقل من فكرة يعيها في ذهنه بلا مبالاة إلى شعور حيّ يحول الفكرة الجامدة إلى عمل حاسم.

فالشهيد لا يبلغ إلى الشهادة بمعرفته الحق فقط بل بالحماسة والإيثار والرغبة في الفوز بإحدى الحسنيين.

وهكذا فإن الخطيب يهدف إلى تحويل الأفكار إلى عواطف يندفع المرء بتأثيرها إلى أعمال فائقة تبلغ في أحيان كثيرة ما اتفق الناس على دعوته بطولة.

والخطيب الذي يترسخ بتأثيره في الشعب ويفعل في تطويره وتحوله من موقف إلى آخر إنما هو قبل كل شيء مفكر جاد يتبصّر بالأمور ويتعمق بأسرار الكون حتى يكتشف الحقيقة ويمكنها للسامعين في إطار عاطفي خيالي يجتذبهم ويؤثر فيهم غاية التأثير.

ولقد رأينا خلال تاريخ الخطابة العربية عامة والعالمية خاصة أن الخطباء هم في الواقع من كبار المفكرين الذين اعتراهم الذهول لشدة تفكيرهم بواقع الحياة وبما وراء ذلك الواقع، ولقد كان لهؤلاء نظرة ومفهوم عام عللوا به واقع الحياة وحاولوا أن ينظموا به معاملات البشر.

آداب الخطابة

وللخطبة آداب اصطلح الدارسون على دعوتها بالآداب الخطابية كسداد الرأي، وصدق اللهجة وخدمة الحقيقة التي يؤمن بها، والإخلاص للمبادىء الخلقية السامية.

كما أنه لا بد من أن يكون الخطيب شديد الملاحظة حاضر البديهة طلق اللسان رابط الجأش قادراً على مراعاة مقتضىٰ الحال، يؤثر في السامعين بقوة شخصيته فضلاً عن قوة آرائه.

ومن هنا يبدو لنا مدىٰ حاجة إعلامنا المعاصر إلى مثل هذه الآداب التي سيلمسها القارىء إن شاء الله في إحدى الوسائل الإعلامية التي انتهجها رسول الله ﷺ.

والخطابة فن من فنون الكلام غايته إقناع السامعين واستمالتهم والتأثير فيهم بصواب قضية أو بخطأ أخرىٰ، والخطيب الماهر من يستطيع أن يلعب بهذه العناصر لعباً فنياً، فهو يتخذ الوسائل المختلفة لإقناع السامعين ويستعين على الإقناع بالأدلة والبراهين، ثم هو يحرك عواطفهم لاستمالتهم ويلعب بها، فهو يستطيع أن يهدىء ثورتهم إذا شاء ويثيرهم إذا أراد، ويستعين على الاستمالة بإبراز ما في نفسه من معانٍ وأفكار وقوىٰ معينة، ثم يتوخىٰ بلوغ الغاية ويستعين على التأثير بقوة الأسلوب وبلاغته ونبرات الصوت ودقة الإشارة وأمارات الوجه من تعبير صامت يعزز مدلول الكلام.

الخطابة من وسائل الإعلام القديمة

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة: إن وسائل الإعلام في ذاتها نوعان: نوع قديم وآخر حديث، والنوع الأول منها من صنع البشر كالخطابة والشعر والندوة والسوق، والنوع الثاني فيها صناعي من اختراع العلم كالصحف والراديو ووكالات الأنباء ونحو ذلك.

وبها تيسر الاتصال بين الناس، وقد كثر عددهم في كل بقعة، ولم يعد في وسعهم أن يتصل بعضهم ببعض عن طريق الخطابة فقط أو القصيدة فقط أو السوق فقط أو الندوة فقط، لأن أحداً من الناس لا يستطيع أن يجمع الملايين في مكان واحد ليخاطبهم في موضوع معين كما كان الحكام أو القادة يقدرون على شيء من ذلك في الأزمنة القديمة، وإنما أصبحت الوسيلة الوحيدة في العصور الحديثة لهذا الاتصال في الصحف أو الإذاعة أو وكالة الأنباء وما شاكل ذلك.

ولهذا أصبحت عملية الاتصال في ذاتها في العصر الذي نعيشه علمية مصطنعة تفقد كثيراً من قيمتها، وإن لم يكن في استطاعة أي مجتمع من المجتمعات أن يستغني عنها، بينما الوسائل القديمة كانت لها قدرة أكيدة وعجيبة على التأثير في الأفراد والجماهير بالقدر الذي لا يمكن أن تحلم به وسيلة من وسائل الاتصال الحديثة كالصحافة والإذاعة ونحوها.

الأسلوب الخطابي

كما يختلف أسلوب الخطبة وتعبيراتها عن أسلوب الشعر وطريقته، يختلف أيضاً عن أسلوب الكتابة الفنية وكتابة المقالات، فالكتابة الفنية تجنح إلى مجال العبارات وتقسيم الجمل وتحلية التعبير ببعض المحسنات البديعية، ويدخلها أيضاً شيء من خيال الشعر، وكتابة المقالات يعتمد على توضيح المعنى ولكنها غالباً تميل إلى الإيجاز، ولا يجمل بالكاتب أن يكثر من تكرار العبارات والمترادفات وفي وسع القارىء أن يقرأ الجملة مرتين أو أكثر حتىٰ يتعمق المعنىٰ الذي يراد منها، وهذه فرصة لا تتاح لسامع الخطبة، لهذا تعتمد الخطبة علىٰ التوضيح والإبانة، وقد يكرر الخطيب بعض الجمل أو يعبر عن المعنى الواحد بعدة عبارات، أو يذكر في الجملة الواحدة كلمتين مترادفتين كل ذلك مع مراعاة الأناة وقواعد الإلقاء، لهذا كان للأسلوب الخطابي سمات نجملها فيما يأتي:

1 ـ وضوح العبارات وظهور معانيها بحيث يكون الغرض الذي يهدف إليه مفهوماً للسامعين، ولهذا لا يستعمل الخطيب كلمات لغوية غامضة ولا تعبيرات مجازية بعيدة المعنىٰ. ويختلف موقف الخطيب باختلاف سامعيه، فهو حين يخطب في طلاب جامعة أو أوساط مثقفة يستطيع أن يستعمل العبارات البليغة والمجازات البلاغية.

وليس الأمر كذلك حين يقف بين مجموعة من عامة الناس. وخطيب المسجد يستمع إليه أخلاط من الناس منهم المثقف ومنهم من هو بين بين، وهؤلا تختلف درجاتهم العقلية والثقافية، وهذا في الواقع يلقي على الخطيب مشقة كبيرة، إذ هو المسؤول أن يفهم كل سامعيه بمختلف درجاتهم العقلية والثقافية.

ولكن يجب أن تلاحظ أن العامة وناشئة المتعلمين يفهمون المعاني الإجمالية رغم أن بعض الجمل والعبارات تخفىٰ عليهم. ومن هنا كان التكرار والإلحاح على المعنىٰ الواحد بعبارات مختلفة له أهمية، فمن خفيت عليه جملة بينتها الأخرى، ولا بأس أن يستعمل الخطيب بعض الجمل العامية لتوضيح غرضه على ألا يكثر من إيرادها.

2 ـ تعتمد الخطبة على الجملة القصيرة، وعدم الفصل بين البعيد وبين أجزائها، فإذا ذكر المتكلم مبتدأً، ثم أردفه بجملة أو عدة جمل معترضة ثم جاء بعد ذلك بخبر المبتدأ فإن هذا قد يخفىٰ على السامع، وأولىٰ أن يجعل كل جملة مستقلة بنفسها.

كذلك الجمل الطويلة التي تكثر فيها المتعلقات من المفعول به والمفعول له وغيرهما مما يشق فهمه عادة ويشتت الأذهان، وهذا مما يضعف تركيب الجملة، ولكنها في حال الكتابة يمكن أن تستعاد وتفحص على مهل أما في حال الخطابة فقد تمر بدون فهم وتذهب فائدتها نهائياً.

3 ـ في مقامات التهويل والإثارة يحسن استعمال صيغ الاستفهام وصيغ التعجب لأنها تؤدي في هذه المقامات ما لا تؤديه الجمل الخبرية، والاستفهام الإنكاري يكاد يكون حجة مسلماً بها، فضلاً عما فيه من جدة وإثارة، ولكن لا ينبغي أن يكثر الخطيب من كل هذه الصيغ إكثاراً مسئماً، وإنما تستعمل في الوقت المناسب، بحيث لا تفقد تأثيرها...

4 ـ قد يستعين الخطيب بعرض قصة أو حدث تاريخي للاستشهاد به على ما يقول، وهذا مفيد وناجح في أكثر أحيانه، ولكن يفسده طول القصة أو الإكثار من ذكرها.

فهذا يجعل الخطبة درساً، والدرس عادة للتفهيم وليس للاستمالة، والقصة التي تورَد في الخطبة يراد منها الاستمالة ويكفي فيها قص حدث أو واقعة صغيرة تأييداً لما جاء في الخطبة.

عوامل نجاح الخطبة

يختلف الخطباء اختلافاً واسعاً في مقدرتهم الخطابية، وهذا أمر طبيعي في الخطابة وغيرها، إن لكلٍ مقدرته وكفايته الخاصة، ولكن كثيراً ما تجد شخصاً قليل المميزات الكلامية يؤثر في سامعيه ويفيدهم أكثر ممن هو أكثر مقدرة وأفصح لساناً، ويرجع ذلك إلى عوامل كثيرة نجمل أهمها فيما يأتي:

1 ـ اختيار الموضوع: فهناك موضوعات تمس حياة الناس وحاضرهم وهم لذلك يهتمون بها ويتشوقون إلى سماعها وشرح جزئياتها، بينما هناك موضوعات أخرى أصبحت بعيدة عن خواطرهم ولا يعنيهم أن يسمعوا عنها شرحاً ولا تفصيلاً، وقد يثور الخطيب وينفعل في شرح موضوع ما، ومستمعوه يودون أن يفرغ من كلامه، وهم أثناء خطابته لا يتابعونه ولا يعنيهم أن يفهموا عنه أو لا يفهموا.

إذا تحدث خطيب مسجد عن موقف الإسلام من الرق وحكمه وآثاره وتحدث خطيب آخر عن ضرورة تنفيذ الحدود الإسلامية وما يترتب عليه من آثار في مجتمعنا، نجد الناس يستمعون إلى الأول كمن يعرض شيئاً من التاريخ البعيد بينما يصغون إلى الثاني كمن يطبب لأمراضهم، ويرتفع بمستوى حياتهم، وهو لهذا لديه ما يثيرهم به ويستميلهم إليه، إذ ليس كل موضوع يهم الناس يمكن أن يتعرض له الخطيب ولكن الخطيب الماهر اللبق يمكن أن يواجه الموضوع الخطر أو المحظور من جوانب خلفية تثير الناس وتجعلهم من تلقاء أنفسهم يصلون الحديث بالأمر الذي يعانونه.

2 ـ وحدة الموضوع: يجب أن يكون لكل خطبة موضوع معين، ويجب على كل خطيب من خطباء المساجد خصوصاً أن يسأل نفسه قبل الذهاب لخطبته ما الذي يريد أن يدعو الناس إليه، وأن يسألها بعد فراغه منها ما الذي استفاده السامعون من خطبته.

ووحدة الموضوع تعني أن يدور حديث الخطيب حول فكرة معينة أو مبدإ خاص يمهد له أولاً ثم يشرحه ثم يظل يقيم الأدلة عليه ويتكثر من البراهين العقلية والتاريخية وأدلة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة حتى يكون واضحاً جليًّا في العقول، ثم يظل باقياً في قلوبهم وأذهانهم. إنه بهذا يعمق الفكرة ويجعل كل سامع قادراً على أن يزيد أدلتها وحججها وأن يدافع عنها إذا دعاه الأمر إلى ذلك.

3 ـ أن تكون الخطبة مرتبة ترتيباً منطقيًّا:

مقدمة ثم عرض ثم استدلال ثم نتيجة،

كل جزء من هذه الأجزاء مبنيّ على الذي قبله، المقدمة تلفت الذهن وتوجهه إلى

الفكرة، وشرح الفكرة أو الموضوع يوحي بأهمية ما يدعو إليه الخطيب، والأدلة التي تساق تحفز الناس على هذا المبدأ أو تحرضهم على العمل، ثم النتيجة دعوة صريحة وإلزام بالعمل.

قد يعتـف الخطيب موضوعه فيهجم عليه بدون أية مقدمة ولكن هذا يضيع جزءاً مما دعا إليه؛ لأنه لم يسترعِ انتباه سامعيه ولم يهيئهم إلى سماع ما يريد أن يلقي عليهم.

والبداية بالنتيجة وطلب بما يعمل كبداية المدرس بالقاعدة قبل أن يذكر الأمثلة يظل أمراً معلقاً يعوزه الأدلة والإقناع.

وعناصر الخطبة ليست كلها سواء في الأهمية؛ فمنها ما هو حتمي ضروري ومنها ما هو تكميلي، وعلى الخطيب أن يختار العناصر ذات الأهمية لتكون موضع تركيز واهتمام، فهو يلحّ عليها بالشرح والأمثلة بينما لا يفعل ذلك بالأجزاء الأخرىٰ، وكل ذلك يتوقف على تقسيم الخطبة وترتيب أقسامها.

4 ـ يعين الخطيب ويجعله أقدر وأنجح ما يعتمد عليه من حسن الإلقاء ونبرات الصوت، وقد أفردنا للإلقاء حديثاً خاصاً، كذلك تحدثنا عن أسلوب الخطبة وأثره في نجاحها.

الإلقاء

يراد بالإلقاء طريقة التحدث إلى الناس وإنهاء المعلومات بها إلى أذهانهم وقلوبهم.

والإلقاء من أهم العوامل في النجاح الذي يصيب الخطبة أو الفشل، فقد تكون الخطبة جيدة المعاني والأفكار حسنة العبارات والأسلوب، ثم لم تظفر بإلقاء جيد فتضيع فائدتها إذ لا يفهمها السامعون ولا تجذب انتباههم، وقد تكون أقل من ذلك في إعدادها وتكوينها ولكن جودة إلقائها تنهي إلى السامعين كل جزئية منها.

وللإلقاء الجيد قواعد من أهمها:

1 ـ جهارة الصوت وقوته، وكان العرب يفضلون في الرجل أن يكون واسع الأشداق ويصفون الخطيب الجيد بأنه أشدق، وكل متفوه ذو بيان فهو أشدق.

2 ـ حسن مخارج الحروف وتمييز أجزاء الكلمة، وكان العرب يكرهون من الخطيب أن يكون ألثغ، فذلك يضيّع بهاء الخطبة وقد يوقع السامعين في لبس، أو يكلفهم شيئاً من المشقة في فهمه، فإذا تحدث خطيب عن أثر الكبر وأخلاق المتكبرين

بلغة غير سليمة كان ذلك مشقّة في الفهم والإدراك للمعنىٰ المراد. . .

3 ـ تلوين الصوت وتكييفه، فيجهر الخطيب مرة ويعلو صوته، ويلين أخرىٰ حتى يكون كلامه همساً، كما يسرع في جلسة، ويمد صوته في أخرى، ولا بد أن يميز لهجة الاستفهام من لهجة الخبر، وهكذا.

ويزري بالخطبة ويذهب بتأثيرها أن يكون صاحبها رتيب الصوت مطّرد النغم تجري كل تعبيراته على وتيرة واحدة، وبعض الخطباء يثير الناس بحسن إلقائه فإذا قرأت الخطبة بعد ذلك كانت قليلة التأثير لأن تأثيرها في الواقع كان راجعاً إلى حسن إلقائها لا إلى حسن تأليفها، وقد يكون الأمر على العكس من ذلك، وخير الخطب ما جمع بين حسن التأليف وحسن التأثير، وتلوين الصوت يأتي من الدربة ومن انفعال الخطيب نفسه بخطبته فيكون تكييف صوته نتيجة انفعاله وتأثره.

4 ـ لا بد لجودة الإلقاء من الإشارات باليد أو بغير اليد أيضاً، فإن هذه الإشارات مما يوضح المعنى ويثبت أثره في سامعه.

والإشارة وليدة الانفعال والتأثر، والخطيب الذي لا يكون متأثراً بكلام نفسه يفقد أهم صفات الخطيب المؤثرة.

ونذكر مع هذا أن من الخطباء من يسرف في تلوين صوته وكثرة إشاراته حتى يخرج ذلك بالخطبة عمّا يراد منها، بل يفقدها نهائيًّا قيمتها، والخطيب الموفق من يستعمل ذلك في موضعه المناسب بغير إهمال ودون إسراف.

مكونات الخطيب

الخطابة كغيرها من الفنون من المواهب الفطرية؛ فبعض الناس يخلق خطيباً أو شاعراً بفطرته، وهذه الطبيعة توفر عليه جهداً كبيراً في حصوله على كمال هذه الصفة، ومن الناس من يحسن الكتابة وتشقيق الكلام فيما يعبّر عنه من المعاني، ولكنه لا يحسن إلقاءه ولا مواجهة الناس به، ومنهم من يحصر ويعي أو يرتج عليه إذا وقف للخطابة، وإذا تحدث في مجلس أجاد الحديث، ومنهم من لا يستطيع هذا ولا ذاك، وهذا النوع يتجنب الخطابة أصلاً.

أما الآخرون فيحتاجون لى تدريب وتكوين عام حتى يحسنوا الخطابة والشخص الموهوب أقوىٰ وأقدر على أية حال.

ومن أهم المكونات التي لا يستغني عنها الخطيب:

1 ـ درس اللغة درساً يحول بينه وبين الخطأ واللحن، وهذا يرجع إلى درس

قواعد اللغة ومتنها، وكان بين العرب جماعة لحانون وكانوا مضرب المثل والتندر، وكان الخلفاء يحتقرون المتحدث إذا أخطأ أو لحن.

أما الخطأ النحوي فهو أفحش وأسوأ، وأشنع من هذا أن يستعمل الخطيب اللغة العامية في خطبته أو في جمل كثيرة منها، وإنما يسوغ كلمة أو جملة ليفسر بها شيئاً غمض على سامعيه.

2 ـ سعة المحفوظات الأدبية من الشعر والنثر ومأثور كلام العرب من الحكم والأمثال والوصايا، هذا فضلاً عن حفظ الكثير من القرآن وحفظ الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة، فهذا المحفوظ يمدّه بعبارات يستغلها بسرعة ويمنحه قدرة على التصرف في تعبيراته وألفاظه كما أنه يسعفه بما يستشهد به على ما يقول.

ولا ينبغي أن يُكثر الخطيب من هذه الاقتباسات فإن ذلك يفقد الخطبة أثرها، وذكرها يكون دائماً في الوقت المناسب وفي المكان الذي يحسن وصفها فيه؛ فإنها حينئذٍ تكون حجة ثانية مؤكدة لحجته الأولى.

3 ـ لا غنىٰ للخطيب عن دراسة الجوانب السلوكية في علم النفس التعليمي، وبصفة خاصة دراسة الغرائز وترتيبها ومراحل نمو الطفولة، وما يناسب كل مرحلة من معاملة، وبدون دراسة لهذا العلم لا يستطيع الخطيب أن يفهم نفسية سامعيه وهذا يعود عليه بضرر كبير؛ فهو من ناحية لا يعرف ما يجب أن يقدمه لهم من نصائح وعظات إذ لكل جماعة حاجة إلى نصائح خاصة، ومن ناحية أخرىٰ لا يعرف أسباب الانحراف التي تطرأ على سلوكهم ولا كيف يكون علاجها والطب لها.

وعلم النفس التربوي والسلوكي يمدّه بينبوعٍ فياضٍ من المعاني ويمنحه القدرة على لمس قلوب السامعين وتحريك عواطفهم وإثارة مشاعرهم.

4 ـ من مكونات الخطيب الجرأة والشجاعة والثقة بما يقول، وهذه صفات لكل منها مفهومه وليست مجرد مترادفات؛ فالجرأة تعني عدم التهيّب والتردّد فيما يتحدث عنه الخطيب، وهناك مواقف يتعرض لها الخطيب قد توهن قوته وتجعله يغير مجرىٰ خطبته أو يوجزها أو يحذف بعض عناصرها ولكن الخطيب الجريء لا يتأثر بها.

وثقة الخطيب بكلامه تعني إيمانه بالمبادىء التي يدعو إليها، هذه الثقة تدفعه تلقائياً إلى تكييف صوته وانفعاله، وتلهمه الحجج والبراهين وتجعل الآخرين يتأثرون به، وقديماً قالوا: ما خرج من القلب وصل إلى القلب وما خرج من اللسان لا يجاوز الآذان.

5 ـ يجر العنصر السابق عنصر آخر يتوقف عليه نجاح الخطيب الديني أكثر من

غيره: ذلك هو صلاح الخطيب حقاً وإخلاصه لله تعالى وحرصه على الاستقامة التامة على تعاليم الدين.

والخطيب الذي تتوافر فيه هذه الصفة تكون خطبته عبادة لأنها دعوة إلى سبيل الله عز وجل، أما من لا يكون له هذه الصفة فهو منافق وهو أيضاً عرضة للزلل والفتيا بما يرضي الناس لا ما يرضي الدين.

6 ـ لا بد للخطيب مع كل هذه الصفات من التدريب العملي وإعداد نفسه لمواجهة الجماهير ولا بد له أيضاً أن يتوقع الفشل مراتٍ كثيرة، فشأنه في هذا شأن كل متعلم يسقط مرة وينهض أخرى حتى يتم تكوينه ودربته، وإنك واجد من تاريخ الخطابة أشخاصاً كانوا يخطبون للمقاعد الخالية وأمواج البحر ولأشخاص وهميين، وقد أجْدىٰ عليهم ذلك وخرجهم خطباء متفوقين ممتازين.

7 ـ يتأثر الخطيب بمظهره وهيئته ولهذا يجب أن يكون مقبول المظهر حسن الملبس، كما يحسن أن يكون بعيداً عن الصغائر التي تحط من هيبته وأن يكون قليل المزاح بعيداً عن مجالسة العامة وأن يغض عن بعض الكلمات التي لا تناسبه. وهذا يدخل في أدب الخطيب.

أدب الخطيب

تحدث الأولون عن هيئة الخطيب وموقفه فذكروا له صفات ترفع قيمته وتعلي شأنه وأخرىٰ تحط من قدره وتوهن من تأثيره في سامعيه، كما ذكروا له حالات تملّ سامعيه وتدل على نضوب ذهنه وفقره الكلامي.

وقد كره العرب أن يكون الرجل ذا لثغة في أي حرف من الحروف، وذكروا منها أنواعاً كثيرة كالتأتأة وهو تردد التاء واحتباس اللسان بها.

ومن الأسباب أيضاً ضعف النفس وقلة الجرأة. وهي أيضاً من أسباب الحصر لأن الهيبة تذهب بقدرة الرجل على التفكير وتذهب من رأسه الألفاظ، وعابوا على الخطيب كثرة النحنحة ومس اللحية والعبث بالأصابع لأن هذه كلها مما يستعان به على استجلاب الكلام وهي دليل الفقر الكلامي والعي عن متابعة الخطابة، والشأن في الخطيب أن يكون متدفقاً ينتقل من فكرة إلى أخرىٰ في ترتيب واتصال بين أفكاره. ولا يعني تدفقه سرعة إلقائه فهذا عيب آخر؛ لأن الإسراع في الكلام يحول بين سامعيه وبين فهمه، وقد تنشأ عنه لجلجة أيضاً.

كذلك كرهوا للخطيب أن يطيل النظر في وجوه سامعيه، وقالوا إنه من العي وهو

في الواقع من أسبابه، لأن الخطيب أو المتكلم أيًّا كان حين تلتقي عينه بعين من يحدّثه تضعف ذاكرته وقدرته ويعرب عنه الكلام.

أركان الخطبة

تتكون الخطبة الكاملة من أجزاء يتبع بعضها بعضاً ويرتكز كل واحد منها على سابقه، ونحن نسميها أركاناً حتمية في كل خطبة بحيث تكون الخطبة التي تخلو من جزء أو ركن منها مختلة ناقصة أو لا تستحق أن تسمى خطبة، وإنما هو عمل فني يراد به جعل الخطبة أدنىٰ إلى الدقة والكمال، كما يراد منه مساعدة الخطيب وإرشاده إلى ما يكمل به خطبته ويرفعها ويجعل السامعين أكثر استفادة منها، وهذه الأركان قد تكون ضرورية في الخطب الطويلة التي تتعرض لموضوعات هامة خطيرة كما هو الحال في الخطب السياسية والبرلمانية وخطب الدفاع في القضايا الكبرىٰ.

وأكثر الباحثين يجعل أجزاء الخطبة ثلاثة فقط، هي المقدمة، والعرض والنتيجة، والعرض يشمل عرض الفكرة وتبريرها والدفاع عنها ودحض معارضتها، وهذه التقاسيم تكاد تكون متحدة وخلافاتها لا تزيد جديداً ولا تحذف شيئاً.

(1) المقدمة: مقدمة الخطبة أو بدايتها حديث يبدأ به الخطيب خطبته لشد انتباه السامعين نحوه، ولتهيئتهم للإقبال عليه والسماع لما سيقوله لهم، وتمهيداً للفكرة التي يريدها، وهي كما قلنا ليست حتمية في كل خطبة.

الخطبة القصيرة تستغني عنها نهائياً ومع ذلك هي ذات أهمية، فإذا كانت جذابة مشوقة أنجحت الخطيب وجعلت الناس يقبلون عليه، وإقبالهم عليه يشد عزمه ويثير فيه النشاط والحمية، وهي في جملتها عامل تهيؤ للسامعين، والزعيم أو القائد يهتم الناس بخطابه لأنه يقرر مصائر شعبه أو توجيه جنوده فيصغي له أتباعه وأعداؤه على السواء.

ومن أهم مميزات أسلوبها وصوغها البلاغي:

1 ـ أن تكون مشوقة ذات قدرة على شد انتباه السامعين على نحو ما سبق، وقد يستطيع الخطيب بجاذبية كلامه أن يعيد إلى سماعه أشخاصاً همّوا بالانصراف عنه، وفي المقدمة والخطبة جميعاً يجب أن يتجنب الخطيب المبالغات وأعمال الانتباه القسري أو الإتيان بحركات بهلوانية.

2 ـ لكي يصل الخطيب إلى هذه الدرجة يبدأ بألفاظ واضحة مفهومة، وأفكار قريبة لا تحتاج إلى تفكير، وبعد أن يطمئن إليه الناس ويتجهوا بأذهانهم نحوه يستطيع

أن يتحدث عن الفكرة التي يريد، ولكن مهارته تظهر في مدى ما له من قدرة على تقريب المعاني البعيدة وتبسيط الآراء المعقدة.

وفي أكثر الأحيان يستوحي الخطيب مقدمته من المجتمع الذي يحيط به فيأتي بكلام أو معانٍ تناسب هذا المجتمع.

3 ـ لا بد أن تكون شديدة الصلة بموضوع الخطبة، فلا يكون بينها وبين الخطبة حين ينتقل إليها فجوة، بل تكون الخطبة امتداداً للمقدمة، وهو في هذه الحالة إذا أطال المقدمة كان طولها توضيحاً للخطبة، فإذا كان مضمون المقدمة بعيداً من موضوع الخطبة كانت عديمة الفائدة لأن الحديث يكون عن موضوعين كلٌّ مستقل عن الآخر، ولا يجوز أن تكون المقدمة ذات موضوع أصلاً، بل هي تمهيد وتوطئة للموضوع يراد منها تهيئة الأذهان إليه.

(2) الموضوع: نعني بالموضوع جرياً على مذهب الأغلبية ما يشمل الفكرة التي يدعو إليها الخطيب والتدليل عليها ودفع ما عسىٰ أن تقابل به من نقد واعتراضات، وهذا الجزء أهم أجزاء الخطبة أو هو عمودها الفقري وكيانها؛ فالأجزاء الأخرى يمكن الاستغناء عنها، أما هذا الجزء فهو الأساس وبقية الأجزاء جيء بها من أجله ومهمتها هي إنجاحه وتثبيت آثاره.

وتتوقف جودة هذا العرض على أمور أهمها:

1 ـ وحدة الموضوع: بحيث تتركز الخطبة في أمر واحد يدور الكلام حوله وتتجمع الأدلة لتأييده وتقويته، وقد تكون الأدلة قياساً منطقياً أو احتجاجاً بحادث تاريخي أو عمل لشخص ذي شهرة، ولكنها كلها تنتهي لغرض واحد وتصب كلها في بؤرة واحدة، وعمل الخطيب حينئذٍ هو تعميق الفكرة وتثبيتها لأن هذا يثير انفعال السامعين ويدفعهم إلى العمل بما يدعو إليه الخطيب.

2 ـ ترتيب الكلام وترتيب الأفكار: يبدأ أولاً بالفكرة البسيطة ثم يتدرج حتى يصل إلى قمة ما يريده، وفي القمة يبدو انفعاله وقوة صوته وقوة نبراته جميعاً وعلى سبيل المثال: أراد خطيب مسجد أن يدعو المصلين إلى التبرع لمساعدة ملجإ خيري به أيتام وفقراء فكيف يوجه خطبته ويعرض موضوعه؟!.

أ ـ قد يأتي بمقدمة وجيزة تبيّن أن الإسلام دين التعاون وأن المسلمين أمة واحدة يحميهم شعور الإخاء ويؤذيهم أن يكون بينهم جائع أو عارٍ أو محتاج، أو أن الدين يأمرهم بتحاشي وجود شيء من ذلك بينهم.

ب ـ ينتقل بعد هذا إلى التعريف بحال الملجأ الذي يدعو لمساعدتهِ ويصف ما يقدمه للأيتام والفقراء الذين به.

جـ ـ ينتقل من هذا إلى دعوتهم للتبرع.

د ـ يعينه في هذا أمور كثيرة تتوقف على مهارته وثقافته وعمق تفكيره، إن هؤلاء المساكين قد ينشىء الملجأ منهم نفوساً صالحة وأشخاصاً نافعين لمجتمعهم.

3 ـ إذا انتقل الخطيب من الفكرة الأساسية إلى الأدلة التي يريد الاستناد إليها يجب أن تكون أدلته واضحة قريبة متصلة بما عرضه في موضوعه، وليس من المحتم أن تكون أدلته منطقية من أنواع أقيسة المنطق، فالدليل المنطقي أقوىٰ وألزم بالتسليم ولكن من الجائز للخطيب ـ وهذا هو الأكثر ـ أن يستعمل أدلة ظنية بمعنى أن مقدماتها أمور ظنية وهذه الأدلة كافية في المواقف الخطابية وتسمىٰ أيضاً أدلة خطابية بمعنى أنها غير مقطوع بها ولكنها تثير الحمية وتبعث حماس السامعين.

(3) الخاتمة والنتيجة: بعد أن يفرغ الخطيب من عرض موضوعه وسوق أدلته عليه أن ينتهي إلى الغرض الذي أعدّ الخطبة من أجله.

أكثر الخطباء يعودون بتلخيص لعناصر الخطبة وأهم أفكارها، وفي هذه الحالة لا يسرف الخطيب في التلخيص لأنه حينئذٍ يمل ويأتي بعكس ما أراد، وأيضاً لا يستعمل التعابير التي سبقت بعينها وإنما يأتي بتعبير آخر جامع واضح ذي تأثير.

وأهم شروط الخاتمة ما يلي:

1 ـ ألا تكون بعيدة عن الموضوع ولا مجددة لأدلة أو آراء جديدة لأنها حينئذٍ لا تكون خاتمة وإنما تكون جزءاً من الخطبة وامتداداً، ومهمة الخاتمة هي تركيز معاني الخطبة واستمالة الناس أكثر نحوها.

2 ـ أن تكون قوية في تعبيرها وأيضاً في إلقائها لأنها آخر ما يطرق سمع الناس ويبقىٰ في أذهانهم، وربما كانت الخاتمة ضعيفة في تركيبها أو فاترة في إلقائها فتذهب فائدة الخطبة كلها، والخطيب الناجح يلقي خاتمة خطبته في حماس واقتناع وثقة، مشعراً جمهوره بأنه انتهىٰ إلى رأي لا يحتمل جدلاً ولا يحسن أن يغضي عنه.

3 ـ وآخر ما نذكر من صفات الخاتمة أن تكون قصيرة على نحو ما رأينا وحاسمة ومشوقة. هذه هي أجزاء الخطبة الفنية الكاملة، والخطب الطويلة تقوم عليها جميعاً ولا يغني هذا الشرح عن الرجوع إلى مطولات الخطب وتحليلها وتبين مدىٰ تكامل هذه الأجزاء بها.

إعداد الخطبة وارتجالها

الخطبة قد تكون غير مرتجلة وقد تكون مرتجلة.

والخطبة المعدة موضوع إنشائي يستدعي من الخطيب أن يفكر فيه تفكيراً مناسباً للحادث الذي تلقىٰ فيه الخطبة. يفكر في عناصره واحداً بعد واحد ثم يعمل على ترتيبها أيها يبدأ به وأيها ينهي به كلامه، ولا يكفي التفكير في المعاني، بل عليه أن يفكر أيضاً في العبارات التي يعبر بها وفي طريقة مواجهة الجماهير بها وكيفية بداية الخطبة، وفي موضوعاتها وأدلتها لا يكفي مجرد التفكير الشخصي بل لا بد من الرجوع إلى المصادر التي تفيد في صنع الخطبة.

وحقاً أن ما يفيده الخطيب من اطلاعه الخاص وقراءاته السابقة يمدّه بمعانٍ وأدلة ولكن لا بد ـ خصوصاً للمبتدئين ـ من مراجعة المصادر التي تمدّ بقوىٰ أكثر وكلّما كثرت مواجهة الخطيب للجماهير وطالت ممارسة الخطابة كان الإعداد أسهل عليه.

والخطيب المطّلع ذو الدربّة والممارسة يجد من خطبه الماضية مدداً لخطبته المرتجلة، ولهذا قلنا إن هذه صدىٰ لتلك، وسعة الاطلاع على أي حال هي ذخيرة الخطيب وربما طلب من خطيب أن يرتجل خطبة طويلة ذات موضوع وهكذا كثيراً ما يحدث فلا يسعفه إلا ما له من سعة الاطلاع.

ولا يجمل بالخطيب المرتجل أن يتعرض لآراء جديدة أو نظريات غير مدروسة لديه لأن هذه لا تكون إلا نتيجة تفكير طويل وفحص واستعراض للموضوع من كل جوانبه وهذا ما لا يستطيع له وقت المرتجل فأولى به أن يتحاشاه.

أنواع الخطابة

تقسم الخطابة بحسب موضوعاتها العامة، غير أنه ليس دقيقاً كل الدقة، بل يتداخل بعض أقسامه في بعض والنظر والتسمية من جهة الجوانب الغالبة.

الخطبة السياسية

خطبة موجهة من حكومة الدولة إلى وجهة معينة سواء في علاقاتها الخارجية أو أعمالها الداخلية، وقد كان هذا هو موضوع هذه الخطبة عند اليونان.

هذا النوع من الخطب نال نشاطاً وازدهاراً في عهد الأحزاب السياسية في مصر وانتقل من الخطابة إلى الكتابة الصحفية وكتابة المنشورات، فكان بيان الخطابة والكتابة

يجريان معاً في طلق واحد، ولكن مع الصحف اليومية وغير اليومية كانت تعقد المجتمعات لحزب ما أو عضو بارز ليحدث عن سياسته وربما استغرقت خطبة ساعة أو أكثر نجد المستمعين خلالها صامتين مصغين كل الإصغاء قد تعلقت أعينهم بالخطيب وتموجت أجسامهم بتموج حركاته.

مكونات الخطبة السياسية:

ليس كل خطبة سياسية مما ينال نجاحاً وقبولاً لدىٰ السامعين، وكثيراً ما ينصت السامعون احتراماً للخطيب ولكنهم غير مقتنعين برأيه، ونجاح الخطبة يقوم على الإقناع والاستمالة.

وبوجه عام تعتمد على عملين هما تأييد رأي الخطيب وهدم الآراء المعارضة، ذلك لأن الخطيب إذ يزيّن رأيه لا يدع مجالاً للرأي الآخر أن يبرز في ذهن سامعيه بل ينفرهم منه ويطرده عنهم. وأهم قواعد الجانبين ما يلي:

1 ـ على الخطيب أن يدرس الموضوع الذي يريد أن يتخذه موضوع خطابته ويتعمق معانيه ليمكن أن يقدم لمستمعيه شيئاً جديداً مقنعاً.

2 ـ يجب أن يكون مقتنعاً بالمبدأ الذي يدعو إليه فهذا الاقتناع يمنحه حرارة وقوة في خطابه ويمدّه أيضاً بمعانٍ جديدة.

3 ـ عليه أيضاً أن يدرس آراء معارضيه لينقذها ويضعف تأثيرها، وهو في هذا يوازن بين مذهبه ومذهب الآخرين المعارضين، ويبين ما لمذهبه من مزايا ومنافع عامة للناس وما للمذهب الآخر من أضرار وقلة الجدوىٰ.

4 ـ الخطيب السياسي في أكثر مواقفه كالمناظر قلّما يسلم من معارضين وقد يفاجأ بمن يقاطعه في حديثه أو يبدي عليه اعتراضاً.

خطب الصلح

تتصل بالخطب القضائية خطبُ الصلح بين المتخاصمين، والغرض الأساسيّ منها هو إصلاح ذات بيْنهم وإزالة ما بينهم من إحنٍ وضغائن وهي من الخطب القضائية لأن مجلس المصالحة العرفي أو الوسيط بين الخصوم قد يحكم على أحد الطرفين بدفع غرامة مالية أو عقوبة أدبية..

والفرق بين هذا الموقف وموقف المنافرة أن المتنافرين ليس لأحدهما حق على الآخر ولكن كلّ منهم يدعي أنه أرفع منه وأشرف، وخطبة الصلح عمل قضائي يحاول إحلال المودة مكان الخصام.

والاتجاه العام في خطبة الصلح أنها تدعو إلى التسامح والعفو وترغب في الصفح وعدم الانتقام كما تنفر من المعارك ومن إراقة الدماء، وقد يذكر الواعظ في هذا المقام عفو رسول اللهﷺ عمن أساؤوا إليه من قومه حتى الذين حاربوه وهمّوا مراراً بقتله. وفي يوم الفتح سأل عن عتبة ومعتب ابني أبي لهب الذين كانوا شديدي الإيذاء له.

الخطب الاجتماعية

نعني بالخطبة الاجتماعية تلك الخطبة التي تلقىٰ في موضوع يهم المجتمع ويعود عليه بعض الفوائد ومن أمثلة ذلك: أن يدعو خطيب القرية لإنشاء مدرسة أو نادٍ بها أو يقترح شق الترعة أو إقامة جسر أو يدعو شخص في مجتمع ما لإنشاء دار أمومة تساعد المرأة الموظفة.

وخطيب المشروع الاجتماعي كأي خطيب آخر لا بد له من درس موضوعه درساً عميقاً يجعله يدرك غايته وفوائده ويدرك ما يستدعيه نظامه وقيامه من مشاق وبهذا يستطيع أن يدفع آراء معارضيه وهذه الخطبة من حيث ما تجلبه من منافع تتصل بالخطبة الدينية.

ولكي ينجح الخطيب في موقفه هذا يتبع هذه الخطوات:

1 ـ يقدم لمشروعه بمقدمة مناسبة.

2 ـ يعرض مزايا مشروعه وفوائده، وعليه أن يتوسع في هذا الجانب ويستقصيه ليرىٰ أن نفعه يعمّ الفقراء والأغنياء جميعاً ويرفع مستوىٰ مجتمعه ويسدّ نقصاً فيه، فهذا هو موضوع الخطبة الذي هو أهم أجزائها.

3 ـ عليه أن يذكر أمثلة لهذا المشروع ونظائر له من مشروعات أخرىٰ كانت، رغم ما كلفت من مشقة وجهد ذات نفع تنسي ثمرته كل ما بذل من مشقات.

4 ـ إعداد العبارات وتنسيق الأسلوب والاستشهاد بالأحداث والأحاديث وآيات القرآن وأبيات الشعر، مما يثير عواطف السامعين ويهيئهم للإقبال على ما يدعو له الخطيب.

5 ـ من المفيد جداً أن يستأنس الخطيب بأعمال العظماء والمشهورين في ميدان الإصلاح الاجتماعي وما أنشأوا من مشروعات كانت في بدايتها صغيرة ثم نمت وصارت ذات نفع عظيم وبقيت تحمل ذكراهم وتذكر الناس بأياديهم.

موضوع الخطبة الاجتماعية لصيق بالخطبة الدينية ومما يجب أن يهتم به الواعظ

الإسلامي، وهو في جملته موضوع إنشائي يحتاج إلى البحث عن عناصر جيدة وترتيبها ترتيباً مناسباً يفضي إلى نتائجها.

خطب المحافل

وهي ما يلقىٰ في حفلات التكريم لبعض الأشخاص، وقد تكون بسبب انتقال موظف كبير من عمل إلى آخر أو من بلد لآخر أو بسبب تقاعده، أو قيامه بعمل خطير أو استقباله قادماً من السفر.

وهذا النوع الخطابي يختلف عن المراثي الشعرية لأن قصائد الشعر وطبيعة الشعر تحتمل المبالغة والتجوز أما الخطبة فتسقط إذا جنحت إلى المبالغة ويسقط الشاعر أيضاً إذا أسرف في مبالغته.

ومن المفيد المقبول أن يمر الخطيب سريعاً بصور من حياة المحتفىٰ به لا ليعرض تاريخ حياته بل ليقف عند أعماله ومواقفه التي تستحق الذكرىٰ والتمجيد.

والخطبة الناجحة في هذا الموقف تتبع طرقاً معينة أهمها ما يأتي:

1 ـ أن يتخذ الخطيب من عمل خاص للمحتفىٰ به محوراً لخطبته، فيبيّن أثر هذا العمل ويدعو الناس إلى محاكاته أو إكماله أو ابتداع شيء مثله، فهو بهذا يكرم مبدأ أو عملاً يحفز السامعين لعمل مثله.

2 ـ أن يكون لدىٰ الخطيب معلومات خاصة عن المحتفىٰ به، ودراية قيمة له ليكشفها أو يكشف ما يجوز التحدث عنه منها، فهذا إذ يرفع قدر المحتفىٰ به، يوجه الناس إلى محاكاته أيضاً، وربما اشتمل الحديث على أحداث لم تكن.

3 ـ قد يجنح الخطيب إلى الحديث عن الوظيفة التي شغلها المحتفىٰ به وأنه حقّق كثيراً منها أو قام بكذا وينتظر من خلفه أن يحقق ما بقي.

4 ـ قد يبدأ الخطيب بإلقاء عدد من الأمثلة التمهيدية كأن يسأل: لماذا نحتفل بهذا الشخص؟ وما هي الأعمال التي جعلته موضع تقدير وإجلال؟.

بقي شيء آخر لا بد منه وهو أسلوب هذه الخطابة، إنها موقف ألصق بالأدب وفي كثير من الأحيان يقع الخطيب في حرج فلا ينقذه إلا اطلاعه الأدبي وثقافته الخاصة، وهذا التكوين يفيد أيضاً عند المفاجأة وعندما يكون الخطيب خالي الذهن عن الشخص أو لا يجد له ما يستحق أن يكرم عليه حيًّا أو ميتاً.

خطب الرثاء

تدخل خطب الرثاء في خطب المحافل، وقد أفردناها بحديث موجز لنبيّن فيه الفرق بين التأبين وخطب التعزية.

والرثاء نوع من التأبين، والفرق بينهما أن التأبين يتناول الحديث عن الميت، والتعزية فيه توجه إلى آله وذويه.

وهذا النوع قديم قديم في الجاهلية وفي الإسلام، ولكنه في الشعر أكثر وأغلب، وهناك قصائد اشتهرت في هذا النوع؛ فإذا رجع الخطيب إليها استفاد من معانيها واستعملها نثراً فترفع قيمة خطبته.

الخطبة الدينية

تعتمد الخطبة الدينية على تعاليم الدين أو تلقى لغرض من أغراضه، فهي تشمل الخطبة المنبرية التي تلقىٰ في الجمع والأعياد ويوم الحج الأكبر وعند صلاة الاستسقاء.

والخطبة الدينية أشق أنواع الخطب جميعاً فإذا استهان بها الخطيب وجعلها أمراً تقليدياً هانت وسقطت وأصبحت عديمة الفائدة نهائياً.

ولا تزدهر الخطبة الدينية وتثمر إلا في عصور الحرية شأنها في ذلك شأن الصحافة والخطب الأخرىٰ، فمهمة الخطيب الديني تتوقف على جانبين: بيان حكم الشرع في أمر من الأمور. هل هو جائز أو ممنوع، ثم تطبيق هذا الأمر على حياة الناس وأوضاع المجتمع الذي يعيش فيه، وكلا الجانبين كثيراً ما يكون مضاداً لما يريد الحاكم فيحجم الخطيب عن شرحه أو طلب تطبيقه وهذا سبب تأخر الخطابة في عصور الاحتلال الأجنبي والاضطهاد. والخطابة الدينية دائماً ذات مغزىٰ شريف وأغراض سامية نبيلة لأنها دائماً تلفت الذهن إلى الجزاء الأخروي، وتحذر من الحساب على الأعمال وتذكر بالوقوف أمام الله تعالى فهي بهذا ترفع الإنسان عن الأغراض المادية وتسامىٰ به إلى المعنويات.

أسباب ضعف الخطبة الدينية:

نجمل أسباب ضعف الخطبة الدينية في هذه الأسباب:

1 ـ بُعْد الخطبة عن حياة الناس وواقعهم، فخطيب المسجد يدور في محيط ضيق هو الحديث عن الجنة والنار، وقد يحدث الناس من أشياء بعيدة جداً عن حياتهم ولا يتوقع أن يواجهوها.

2 ـ تعدد أغراض الخطبة، وهذا شائع وفاشٍ في أكثر المساجد، تجد الخطيب يتحدث عن صلة الرحم وبر الوالدين والرفق بالضعاف ومساعدة الفقراء وحسن تربية الأطفال.

3 ـ تكرار المعاني والشواهد، فالخطيب يذكر معانٍ واحدة معادة يذكرها في كل خطبة وأكثرها يدور حول موضوعات معروفة للكثيرين، وهذا التكرار يذهب بأثر الآيات والأحاديث والنصائح، فلا تمس قلوب السامعين ولا تحرك مشاعرهم.

4 ـ سوء إلقاء الخطبة وقد تحدثنا من قبل عن طرق الإلقاء السليمة.. وأنت لا تزال تجد بين خطباء المساجد من يلقون الخطبة بطريقة منغمة ومن يلقيها بأسلوب رتيب تستوي فيه صيغ الاستفهام والتعجب والإخبار.

وسائل النهوض بخطبة المسجد:

خطيب المسجد الحديث مطالب بإحياء الخطبة الدينية، ويوجد الآن فراغ واسع في هذا الميدان، وتعطش كبير إلى سماع العظات والإرشادات الدينية، ولكي يسد الخطيب العيوب التي ذكرنا فيحصر خطبته في موضوع واحد.

ولا يقتصر حديثه على الدار الآخرة وما بها من ثواب وعقاب بل لا بد أن يزاوج بين جزاءي الدنيا والآخرة؛ فنفوس الناس تتعلق بالنفع العاجل وتخشى كوارث هذه الحياة، وهناك آيات وأحاديث تتوعد العصاة بعقوبات دنيوية.

ولا تكون الخطبة كلها دائرة على النفع والضرر الدنيوي فهي بهذا تكون أقرب إلى المادية وإنما تربط الأعمال دائماً بطاعة الله وحب القربىٰ إليه حتى تأخذ صورة العبادة.

تاريخ الخطابة قبل الإسلام

الخطابة عند اليونانيين:

نجد في حياة اليونانيين أمرين ظاهرين:

أولهما: أن هذه البلاد وهي مهد العبقريات ومشرق الفلسفات ومنبت الفكر الإنساني في أنحاء العالم كله، فشلت في جانب سياسي عظيم وهو توحيد بلادها وجمع ولاياتها تحت تابع واحد.

ثانيهما: أنها تبعاً لهذا الفشل قضت نحو ستة قرون في حروب محلية بين قبائلها المختلفة ولم تحقق في هذا المدىٰ الطويل ما حققه الإسكندر في زمن قصير.

أسباب رقي الخطابة اليونانية:

نجمل أسباب رقي الخطابة وتقدمها عند اليونانيين في الأسباب الآتية:

1 ـ اتصال الحروب والمناوشات، وهي حالات تدعو إلى تأييد رأي وتفنيد رأي وتشجيع المحاربين وإثارة الجماهير.

2 ـ في الوقت الذي كانت أثينة فيه تعد نفسها إعداداً عسكرياً بحتاً، كانت إسبرطة مركزاً فنياً عاماً، نشطت فيه التمثيليات والفنون والخطابة والأدب.

3 ـ كان نظام اليونان السياسي مشجعاً أيضاً على الخطابة، فكانوا إذا عرض أمامهم رأي من الآراء قام صاحبه إلى تشريعه أو رفضه، فإذا انتهىٰ الخطباء المؤيدون والمعارضون من خطبهم طلب من الحضور أن يعلنوا رأيهم، والجماهير عادة تتأثر ببلاغة الخطيب وبيانه أكثر مما تتأثر بحججهم المنطقية.

4 ـ كان النظام القضائي يؤدي مثل ذلك أيضاً، فقد كان مجلس القضاء يتكون من عدد من القضاة يزيدون على المئة وهذا العدد كبير يجعل القضاة جمهوراً ويجعل المحامين يسلكون سبيل التأثير في عواطف القضاة، ويهتمون ببلاغة الخطبة أكثر من روحها القانونية، فكان ذلك مدعاة إلى نهضة الخطابة لأنها هي التي تحقق للمتقاضين ما يريدون.

5 ـ كان النظام اليوناني يقضي أن يدافع كل شخص عن نفسه، ولم يكن لديهم نظام توكيل محامٍ بمهمة المرافعة وقد اضطر هذا النظام جمهور الشعب أن يتعلم الخطابة ويتدرب عليها، وكان هناك معلمون يعلمون الناس الخطابة وطرق التأثير في عواطف السامعين والاستيلاء على مشاعرهم، وكان الشبان يتعلمون الخطابة ويتدربون عليها استعداداً لما عسىٰ أن يواجههم من مواقف سياسية وقضائية.

الخطابة عند الرومانيين:

لا تنمو الخطابة إلا تحت شمس الحرية، ولم تكن حياة الرومان متمتعة بحرية كافية ولكن ظهر فيها بين حين وآخر خطباء وبرزت مواقف خطابية عظيمة كالتي أشرنا إليها من مواقف بروتوس وأنطونيو، ذلك أن الشدائد وأزمات الحياة تدعو إلى الخطابة وتظهر الخطباء.

وفي العهد المسيحي ظهرت خطب دينية وكان الموقف خليقاً أن يخرج خطباء ممتازين كباراً، ولكن المسيحية ظلت مكبوتة، فلمّا صارت ديانة رسمية انشقت على نفسها واعتنقت الحكومة المذهب الكاثوليكي، ولما ظهر هرقل بمذهبه الذي قام على

وحدة الإرادة، والذي أراد به أن يوفق بين المذاهب المتضاربة كان قصاراه أنه زاد هذه المذاهب مذهباً آخر، وكان بطشه وظلمه مما قتل الخطابة وكمم أفواه الخطباء.

الخطابة عند العرب في العصر الجاهلي:

مما لا جدال فيه أن العرب الجاهليين كانت لهم خطب قوية وأنهم اعتمدوا عليها في مواقفهم الهامة، واستعملوها في مجتمعاتهم ودعواتهم للحرب أو السلم، وقد ذهب الكثير جداً من هذه الخطب مع الزمن، وحفظ لنا التاريخ قليلاً جداً منها، كما حفظ أسماء خطباء مشهورين لم يبق من خطبهم شيء.

وللخطابة الجاهليّة مواقف كثيرة، أهمها ما ذكرنا من اجتماع القوم للتشاور في أمر من أمورهم كالقيام بحرب أو الإصلاح بين متنازعين، ويأتي في هذه المواقف خطب ومحاورات، ويتبع ذلك الوصايا التي يقدمها رئيس القوم أو حكيمهم لقومه أو لأولاده.

وخطب الجاهليين ومحاوراتهم ووصاياهم كلها مما يستعين به الخطيب الحديث، ويجد فيها مدداً واسعاً بالرأي والفكر، وبالتعبير والبلاغة.

صفات الخطيب وعادة الخطباء العرب:

كان للخطباء في الجاهلية سمات وعادات استمرت إلى ما بعد ظهور الإسلام، ولا يزال الكثير منها موجوداً إلى الآن، ذلك أن أغراض الخطابة والوسائل المؤدية إلى الإقناع لا تتغيّر إلا قليلاً.

وقد كان من عادات الخطباء أن يقفوا على شيء مرتفع أو نشز من الأرض، ليشرف الخطيب إلى مستمعيه، فيروا شخصه حين يسمعون كلامه، وليستطيع الخطيب أن يضم إلى كلامه الخطابي إشارات اليد وانفعالات الوجه وحركات الجسم، فيكون أعون على التأثير والاستمالة.

ويستحسن في الخطيب أيضاً أن يكون نظيف الثوب حسن البزة جهير الصوت هادئاً في عباراته، وقد مدحوا سعة الفم وذموا صغره. وجعلوا من الجمال رحب الشدق وبعد الصوت. وربما فضلوا أن يكون كريم الأصل شريف النفس.

وكانوا يمدحون في الخطيب أن يكون ثابت الجنان هادىء المظهر قليل التلفت قليل التنحنح أو العبث بلحيته أو مس جبينه؛ فهم يعدّون ذلك من أسباب غياب الكلام والعجز عن متابعة الخطبة، كما عابوا التلعثم والارتباك.

أما تعبيراتهم فقد تكون مسجوعة، وقد تكون مرسلة متوازنة الجمل، فكانوا لمقدرتهم الخطابية وطواعية اللغة لهم يأتيهم السجع عفواً.

الخطابة في صدر الإسلام:

قلنا من قبل إن الخطابة دون الشعر يعتمد عليها في المواقف الجادة؛ لأن الشعر ترف وإثارة عواطف، والانقلابات الكبيرة في التاريخ تعتمد على الخطباء اللسن ذوي المقاول الصارمة والكلام القوي المؤثر.

وكان ظهور الإسلام والدعوة لمبادئه أمراً خطيراً في حياة العرب لم يقف أثره عند ترك عبادة الأوثان وإخلاص العبادة لله وحده، بل غيّر عاداتهم ونظام حياتهم بما فرض عليهم من سلوك معين، وبما حرّم عليهم من عادات ألفوها ومرنوا عليها سنين طويلة، فهو محا الفوارق بين الناس وسوّى بينهم جميعاًفي الحقوق العامة، وكان هذا أمراً خطيراً لدى العرب، كما حرّم عليهم الخمر والزنا ولم يكن ذلك أمراً هيّناً بينهم.

جعل الإسلام الخطبة فرضاً في صلاة الجمعة، وهذا يعني أن المسلم يسمع خطبة مرة كل أسبوع على الأقل، وأن يكون في كل مسجد خطيب يلقي خطبة في كل أسبوع، والخطبة سلاح الداعية الإسلامي في كل مناسبة يدعو إلى الإسلام فيها، وهي مشروعة في العيدين ويوم الحج الأكبر وفي الدعوة إلى الحرب أو السلم، وفي غير ذلك.

وكان الذين يدخلون الإسلام يدخلونه رغبة واقتناعاً ومحبة وعاطفة، وكان حبهم الإسلام وتقديرهم نعمة الله عليهم به يحملهم تلقائياً على الدعوة إليه ويستعينون على ذلك بالخطابة، فكان المحيط الإسلامي كله مدرسة خطابية قويت فيها الخطابة وكثر الخطباء.

مميزات الخطابة في العصر الإسلامي:

امتازت الخطابة في أول العهد الإسلامي بنبل مقاصدها وسمو أغراضها وتنزهها عن الأغراض الشخصية، فهي كانت دائماً قائمة على الدعوى إلى الإسلام واتباع مبادئه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتطهير النفوس من الأحقاد والاتجاه بالأعمال إلى الله وحده، فلما كان العهد الأموي وانقسام المسلمين ظهر في الخطابة عنصر السياسة وتفضيل فريق من طلاب الحكم على الآخرين.

ولكنها مع هذا ظلت تكتسي برود الإسلام، فكل يحاج الآخر باسم الإسلام ويستشهد بآي القرآن. وبرز غرض الجهاد والتحريض عليه أكثر من أي غرض آخر،

وخصوصاً في معارك علي ومعاوية، ثم ظل نغمة مستمرة على ألسنة الخوارج بمختلف فرقهم، ولعل الخطبة الداعية إلى الجهاد لم تبلغ في موقف من المواقف ما بلغته خطب الخوارج، وخصوصاً في إثارتها النفوس وترغيبها في ثواب الله وتزيينها الجنة وما بها من نعيم وتخويفها من جهنم وما بها من عذاب أليم، وهذا العنصر من أهم ما ميّز الخطبة الإسلامية عن الخطبة الجاهلية، فالخطبة الجاهلية تدعو للقتال محبة وحفاظاً على القبيلة وسمعة أبنائها، وهذه تدعو للحرب حفاظاً على مبادىء الإسلام وترغيباً في ثواب الله والفرق بين المقصدين بعيد في دلالاته ومغزاه.

أما من ناحية الأسلوب فقد تطوّرت الخطبة أيضاً وأصبح لها منذ عهد الرسولﷺ بداية خاصة هي حمد الله تعالىٰ والثناء عليه، وذكر الشهادتين.

ولم تنبت الخطبة الإسلامية تماماً عن الخطبة الجاهلية، فبقي بها كثير من خصائصها من جزالة اللفظ، وإن قلّ غريبها، ومن الاستشهاد بأبيات الشعر، وظلت الخطبة قصيرة إلا ما اقتضاه المقام من الطول، وقد جاء هذا في الخطبة الجاهلية والإسلامية.

كان العرب يستحسنون في الخطبة أن تكون قصيرة كيلا تنسىٰ، وأوصىٰ أبو بكر يزيد بن أبي سفيان حين أرسله إلى الشام فقال: إذا وعظت فأوجز فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً، وسنورد أمثلة للخطبة الإسلامية وعلى رأسها خطب الرسولﷺ.

الخطابة في العصر الأموي:

هذا العصر من أزهى عصور الإسلام خطابة ومحاوراتٍ، ولم يكن حظ الخطبة من الرواج والنقاء في أي عصر من عصور الأدب العربي كله مثل ما كان في هذا العصر خصوصاً في أول قيام الدولة وأثناء بذل جهودها العديدة في تثبيت أقدامها ودحض خصومها.

سبب هذا الرواج أن دواعي كثيرة للخطابة كانت متوفرة: الحرية مكفولة واللغة حية سليمة، والطبيعة موفورة للمتكلمين، وظروف السياسة العامة تدعو إلى كثرة الخطب وتثير الحماس في نفوس الخطباء، والأحزاب المتنافسة تعتمد على الخطبة قبل كل شيء.

تعددت الأحزاب وظلت تتعدد لمدة طويلة. وجد في أول الأمر حزبان كبيران: حزب معاوية وحزب علي، ثم ظهر بعد ذلك الخوارج والزبيريين وغيرها، واعتمدت كلها على الخطابة، ومع ما كان يلجأ إليه كل حزب من التحاف الدين والتستر بوشاحه.

كان كل حزب ينتقص خصومه ويذكر معايبهم، وقامت لذلك محاورات ومناظرات

كثيرة وعنيفة وهي في جملتها لم تخرج عن منهج الخطابة ولم يقف هؤلاء جميعاً ضد الحزب الأموي فقط، فقد كان الإمام علي يحارب في جبهات متعددة، ثم استقر الأمر لابن الزبير.

كان يحارب العلويين كما يحارب الأمويين؛ وقد عاقب منهم من عاقب، وناظر منهم من ناظر، وله مع ابن عباس وابن الحنفية مواقف معلومة.

كل هذه الخصومات والثورات اعتمدت على الخطابة واتخذتها وسيلة دعاية يدافع بها كلٌّ عن نفسه ويشهر بخصومه.

ساعد على هذا أيضاً أن المستمعين كانوا لا يزالون عرباً خلصاً، يفهمون اللغة ويقدرون الكلام الجيد البليغ، وكان ذلك مما يشجع الخطيب ويبعث فيه الهمة والنشاط على تجييد الخطبة وتجويد عباراتها.

كثر فيها الاقتباس من القرآن الكريم رغبة في جعل الدعوة دينية ودفاعاً عن مبادىء الإسلام.

وقد راجت الخطبة الدينية في عصر بني أمية رواجاً شديداً لكثرة مناوئي الدولة الأموية ولهذا دخلها كثير من الطول، فقد كان الخلفاء الأمويون وولاتهم يدخلون في خطب الجمع من الأعياد والحج المسائل السياسية ويوهنون من شأن أعدائهم، فتطول الخطبة، وكان الناس يسأمون خطبهم فيختلفون عنها في صلاة الجمعة، وينصرفون عنها في صلاة الأعياد.

الخطابة في العصر العباسي:

فترت الخطابة أواخر الدولة الأموية بعض الفتور لاستقرار الحكم ولتولي أمر الدولة أحداث انصرفوا إلى اللهو والترف، حتى الخوارج الذين ظل لهم صوت كان شأنهم قد قل وشوكتهم قد فلت بحروب المهلب بن أبي صفرة وأولاده.

فلما جاءت الدولة العباسية انبعثت في جسم الخطابة الواهن حركة حياة بسبب الخصومات التي كان لا بد أن تواجهها أول قيامها، ولكن ما لبثت الدولة أن قضت على هذه الخصومة فعادت الخطابة إلى همود أبلغ وركود أشد.

وقد اعتاد مؤرخو الأدب أن يقسموا العصر العباسي إلى قسمين: العصر العباسي الأول والعصر العباسي الثاني، ذلك لأن طول العصر وتغير أحداثه جعل للأدب والفكر ألواناً خاصة تختلف في أحدها عن الآخر، والأمر كذلك في الخطابة وإن لم يحدث

لها تغير واسع كالذي حدث في الشعر وجوانب الفكر الأخرىٰ، ولا يعنينا أن نفيض في ذلك بعد الذي قدمنا.

أقسام الخطبة في هذا العهد:

من ناحية النشاط والكثرة راجت الخطبة السياسية أول قيام الدولة على ما سبق أن ذكرنا، وكان هذا النشاط محدود الزمن جداً حتى يمكن أن نقول إنه بعد أبي جعفر المنصور لم يبق مجال واسع للخطابة السياسية، وعناصر الخطبة في هذه الفترة كانت تدور حول حق العباسيين في الخلافة دون سواهم، وكانت تبالغ في النيل من بني أمية وتجسم مساويهم وتوضح أنهم كانوا عبئاً ثقيلاً على عاتق الأمة وأنهم خرجوا عن حدود الدين وهدموا قواعده وأساؤوا حكم الرعية.

أما عبارة الخطبة فإنها كانت على ما هي عليه من القوة والفصاحة وكانت تكثر الاقتباس والاستشهاد بآي القرآن الكريم حتى لتجد الخطبة أحياناً آيات قرآنية ليس بها من كلام الخطيب إلا ما يربط بين هذه الآيات.

أما الخطبة الدينية فلم تنل ما نالت الخطبة السياسية من تدهور وفتور، ولكن طرأ عليها تغير واسع من حيث طولها ومن حيث الأفكار التي تحويها، أما بقاؤها واستمرار العناية بها فلأنها كانت حجة الحكام وسبيل سيادتهم وتثبيت أقدامهم في الحكم.

وقد كانت الخطبة تتعرض للأحداث الجارية ولأعمال الحكام فتسبغ عليها لباساً دينياً وتذكر لها مسوغات من القرآن والسنة، كما تتعرض لأعمال الأعداء بالزراية، وتذكر من الشواهد ما بين فسادها وخروجها عن الإسلام، ونظراً لقلة الأحداث وهدوء الأحوال السياسية أصبحت الخطبة الدينية بحتة تعنى بالدعوة إلى استقامة السلوك والترغيب في الجنة والترهيب من النار، ومن ناحية الأسلوب طالت مقدماتها من صيغ التحميد لله تعالى والصلاة على نبيّه، كما طالت الخطبة أيضاً عما كانت عليه في صدر الإسلام.

ومنذ فجر الدولة العباسية، وبعد الرشيد والمأمون لم يكن الخلفاء يخطبون الجمعة ويؤمون الناس كما كان يفعل الخلفاء من قبل، أو حتى هؤلاء لم يكونوا يخطبون الجمع باستمرار.

وكان لتغلب الأتراك واستبدادهم أثر في تنشيط النزعة الصوفية والدعوة إلى الزهد والتنفير من ماديات الحياة الدنيا، وللصوفية آثار خطابية وعبارات زاهدة بليغة كما لهم أخبار وأقاصيص تكفلت بها كتب التصوف، وإذا رجعت إلى الرسالة القشيرية وكتب التصوف الأخرىٰ وجدت فيضاً من هذه وتلك.

ومنذ القرن الرابع نال الخطابة الدينية ركود وضعف ووجدت دواوين خطب يستعملها خطباء المساجد واشتهر منها ديوان ابن نباتة الذي ظل يحاكي بإخراج دواوين على نسقه حتى العهد الحديث.

وشعرت الخطبة الدينية بانتعاش ضئيل أيام الحروب الصليبية ولكن أسلوب الكتابة في هذا الوقت كان مقيداً بالسجع، ولم تكن ثم معارضة من الجانب الآخر فلم تظفر الخطابة الدينية بما يبعث فيها قوة كافية.

وظلت الخطبة معتمدة على الدواوين خصوصاً في عهد المماليك والعهد التركي فلما جاء العصر الحديث انتعشت الخطابة السياسية والاجتماعية وظلت الدينية على جمودها.

ولكن ترقى أسلوبها ومنهجها بترقي الدراسة في الأزهر، ثم قام عدد من الجمعيات الإسلامية مثل أنصار السنة والجمعية الشرعية والإخوان المسلمين فجعلوا للخطبة الدينية هدفاً ومنهجاً ودارت كل جماعة منها في محيطها، فاستيقظت على أيديهم ونالها كثير من التجديد واتساع الأفق وإدخال جوانب اجتماعية كثيرة فيها ثم عادت ثانية للركود، وهي في الوقت الحاضر ليست على ما كان ينبغي أن تكون عليه من القوة.

أسلوب الخطابة

ـ تعريفه:

هو مجموع الوسائل التعبيريَّة التي يطرح الخطيب عبرها أفكار خطبته، ومعانيها.

ـ أثره وأهمّيته:

تتضح أهمّية الأسلوب من زاوية افتقار كلٍّ متكلِّم وكاتب إليه، إذ هو القالب الذي تُصبُّ فيه الأفكار والمعاني لتصل عبره إلى أذهان النّاس وقلوبهم. ولولا الأسلوب لما تمكن أيُّ إنسانٍ من نقل ما يدور في خاطره من الأفكار إلى الآخرين.

فلا غنى للمتكلم عن الألفاظ والتراكيب، التي ينقل عبرها أفكاره وآراءه وعواطفه إلى الجمهور المستمع إليه إن كان خطيباً، أو مدرِّساً واعظاً.

وكذلك الكاتب، أياً كان شأنه في مضمار الكتابة، أأديباً كان أم مؤرخاً، أو مؤلف علم ما، أو كاتب مقالة، أو مدبِّج رسالة أو غير ذلك، هو بحاجة إلى الأسلوب الذي يصبُّ في قنواته آراءه وأفكاره ومشاعره لتصل إلى قرائه.

وبقدر ما يكون أسلوب الخطبة قويّاً وجميلاً، بقدر ما يكون تأثيره في النفوس عميقاً، واستيلاؤه على الأذهان والقلوب بليغاً، وتحريكه للمشاعر والأحاسيس قويّاً.

ـ خصائصه:

يختلف الأسلوب الخطابيّ عن بقيّة أساليب الكلام؛ فهو يمتاز بكثرة الجمل الإنشائية والألفاظ التأثيرية والكلمات الإيمائية التي يستثير إيقاعها المشاعر، ويؤجج معناها العواطف، ويهزُّ جرسها أعماق النفوس.

كما تكثر فيه الجمل القصيرة والعبارات الخاطفة، التي تتناسب مع نَفَس الخطيب، وقوة صوته، وتساعد على جوٍّ التفاعل بين المتكلم والجمهور المستمع إليه.

وسائل الأسلوب:

1 ـ الألفاظ: تعتبر الكلمة أساس التعبير عن المعنى، إذ إنّ كلام الإنسان بجميع تراكيبه، ما هو إلا مجموعة ألفاظ، فنأخذ من ذلك أن المعنى العام للجملة يتكون من مجموع المعاني التي تدل على ألفاظ تلك الجملة، وأنّ المعنى الكلّي للّفظة الواحدة يتكون من المعاني الإيحائية التي تدل على أحرف تلك اللفظة، وهذا باب واسعٌ في فقه اللغة، نكتفي هنا بمجرّد الإشارة إليه.

ونصل من خلال ما سبق إلى عدة ملاحظات تجب مراعاتها عند اختيار ألفاظ الخطبة هي:

أولاً: اختيار اللفظ المناسب للمعنىٰ؛ وهذا الضرب من الاختيار يزيد في جمال الكلام وحسن البيان.

ثانياً: البعد عن الكلمات القريبة وإيثار الألفاظ الواضحة المأنوسة لأن الكلمات الغريبة لا تكون كفيلة بنقل معاني الخطبة إلى أذهان السامعين بيسر وسهولة، وإنما تجعلهم يحسّون عند سماعها أنهم يعيشون في متاهة تخرجهم من دائرة فهم معظم معاني الخطبة وأفكار موضوعها، هذا إن لم تبعدهم عن فهم الخطبة برمّتها.

ثالثاً: انتقاء الكلمات المأنوسة ذات الجرس الموسيقي المعبر والإيقاع الموحي والوقع الجميل في السمع والنفس وتجنّب الكلمات الشائكة ذات النطق الثقيل التي تنزعج منها الأسماع وتنفر منها النفوس كلفظة «الجرشّ» في قول المتنبي:

مبارك الاسم أعزّ اللقب كريم الجرش شريف النسب

رابعاً: البعد عن الكلمات المبتذلة والركيكة والألفاظ العاميّة: فاستعمال مثل هذه

الكلمات يورث أسلوب الخطبة ضعفاً ويفقده الرونق والجمال وقوة التأثير في نفوس المستمعين الذين لا تستهويهم تلك الألفاظ، وإنما يألفون لغة القرآن الكريم لأنها أوقع في النفس وأبلغ تأثيراً في الشعور، والخطيب الذي يستخدم ألفاظ اللغة الدارجة، ويتعاطىٰ في خطبته الكلمات المبتذلة والعبارات الركيكة لا يكون صادق الوفاء في الحفاظ على سموّ أسلوب خطبته ونقائه من شوائب أسلوب العامية وأخلاط الركاكة والابتذال، وفي الوقت نفسه لا يتمكن من النهوض بجمهوره إلى مستوى يليق بلغة القرآن وثقافة الإسلام؛ لأن اللغة من أهم وسائل الثقافة الإنسانية ومنجزات الفكر البشري في حياة الشعوب والأمم.

خامساً: تجنب تكرار اللفظ الواحد في الخطبة لغير حاجة، لأن ذلك يؤدي إلى سآمة السامع ومله ويعدّ التكرار من عيوب الكلام كما جاء في علم البلاغة العربية.

2 ـ التراكيب:

نقصد بالتراكيب: العبارات والجمل التي تتألف من عدة ألفاظ تحقق بمجموعها معنًى معيناً، وإذا كانت التراكيب سهلة حسنة السبك، جارية على سنن العربية وطرائق تعبيرها، خالية من التعقيد وتنافر الكلمات، مؤتلفة مع جوّ الخطبة العام؛ كانت الخطبة قوية التأثير جميلة العرض محمودة الذكر بالغة النفع.

وعلى هذا تجب ملاحظة الأمور الآتية:

أولاً: أن تكون التراكيب قوية متماسكة محققة للمعنىٰ المقصود في أجمل صورة لفظية، سليمةً من الضعف والتفكك: وتفسير ذلك: أن تكون الألفاظ متناسبة في اجتماعها لتحقيق المعنى المراد متآلفة في تعانق حروفها وتناغم حركاتها وإيحاء لفظها وجرسها الموسيقي.

ثانياً: أن تكون التراكيب متوازنة في ترتيب ألفاظها: بحيث تنزل كل لفظة منها في مكانها المناسب ويأخذ بعضها بيد بعض في نظام محكم وترابط دقيق فتتجنب بذلك عيب التعقيد اللفظي الذي يورث الكلام غموضاً يجعل السامع يتصعب فهم المراد منه.

فإذا لم تقع اللفظة في موقعها المناسب من التركيب فأخرت عن مكانها وقدمت عليها أخرىٰ بلا سبب بلاغي أو لغوي يجوّز ذلك التقديم أو التأخير، أو فصل بين اللفظتين المتجاورتين بفاصل لا تسوّغه قواعد التعبير اللغوي الفصيح، أدىٰ ذلك إلى فقد الكلام صفة الوضوح وعناء السامع في فهم المعنى المقصود، وإذا لم يتمكن المستمع من فهم ما يلقىٰ عليه من الكلام لم تتحقق له فائدته ولم تصل إليه غايته.

ثالثاً: خلوّ التراكيب من ظاهرة التكلف اللفظي وسلطان السجع، وتفسيره عند البلاغيين أن تتوافق الفاصلتان في الحرف الأخير، ولا يكون إلا في النثر، وهو ممجوج غير مستحب إذا كثر وشاع في الخطبة أو أي نص نثري؛ لأنه يؤدي إلى انشغال السامع بإيقاعاته وبريق الصنعة في ألفاظه عن مضمون الخطبة ومعنىٰ النص اللذين استشرىٰ فيهما.

أما إذا جاء عفوياً من عبارات الخطبة وكلماتها فهو مقبول مستحسن؛ لأنه يزيد من جمال الكلام، ويضفي على ألفاظه وتراكيبه رونقاً وبهاءً، فيعذب في الآذان سماعه ويؤثر في النفوس إيقاعه.

رابعاً: خلو التراكيب من التكرار غير المناسب: تقدم معنا في الحديث عن الألفاظ أن من محاسنها في الخطبة عدم تكرار اللفظ الواحد منها لغير حاجة داعية إليه، ونذكر هذه الملاحظة أيضاً في التراكيب، فتكرار التركيب الواحد أكثر من مرّة في الخطبة لغير حاجة يعدّ من العيوب المخلّة بتماسك الأسلوب ودليلاً على ضعف قدرة الخطيب على تحصيل المعاني التي يريدها بتراكيب جديدة تفي بالمقصود، وتجعل السامع في حالة تنبه دائمة من بداية الخطبة إلى نهايتها، فيتمكن بذلك من استيعاب معظم أفكار الخطبة وأكثر معانيها.

فإذا كرّر الخطيب الجملة أكثر من مرة بلا داعٍ مناسب؛ أورث سامعيه السآمة والضجر، وجعلهم ينصرفون عن متابعة تحصيل الفائدة المطلوبة من خطبته، وأما إذا دعت الحاجة إلى تكرير الجملة أكثر من مرة، فهذا لا يسيء إلى قوة أسلوب الخطبة، ولا يشتت ذهن السامع عن إدراك مضمونها وفهم معانيها وإنما يزيد من قوة تأثيرها في نفوس المستمعين، ويضفي على أسلوبها سحْراً وجمالاً وجاذبية.

خامساً: طول التراكيب وقصرها:

تحتل التراكيب القصيرة مركز الأهمية في سياق الخطبة التي تعتمد اعتماداً كليًّا على صوت الخطيب وبهجته، وكلاهما يرتبط ارتباطاً لا انفكاك له بنفس الخطيب، والجملة الطويلة يحتاج إلقاؤها إلى نفس طويل وهذا ما لا يستطيعه إلا النزر اليسير من الخطباء، بل إن الخطيب مهما طال نفسه لا يتمكن من النطق بالجمل الطويلة متتالية مع محافظته على قوة صوته ونشاط لهجته من بداية نطقه بتلك الجمل إلى نهايتها، وربما يستطيع ذلك في جملة أو جملتين لا أكثر.

ويقع الخطيب الذي يجثم نفسه عناء الجمل الطويلة بمآزق، منها:

أ ـ أن يختل توازن صوته ولهجته، وينتقل من النشاط إلى الفتور إن استمرّ في

إلقاء التركيب الطويل إلى نهايته، فيترتب على ذلك اضطراب طريقة الإلقاء وفقد الإيقاع في أذن السامع.

ب ـ أن ينقطع نفس الخطيب أثناء نطقه بالتركيب الطويل قبل أن يبلغ نهايته فيضطر للسكوت، فيترتب على ذلك انقطاع تمام معنىٰ الكلام من المستمع وعدم تحقيق الفائدة المرجوّة في نفسه.

أنواع الأسلوب:

إن من سمات الخطبة الناجحة أن يتلون أسلوب عرضها، وتتغير ضروب التعبير فيها من أمر إلى استفهام إلى نهي إلى تعجب إلى إخبار إلى غير ذلك حيث يمكنها ذلك التلوّن من تنبيه الأذهان واستقطاب الأسماع والأخذ بمجامع القلوب والتأثير في النفوس.

وأمّا إذا التزم الخطيب في خطبته ضرباً من ضروب التعبير لا يبرحه إلى غيره، كأن يلتزم صيغة الأمر أو النهي أو التقرير، فيجعل السأم يتطرق إلى نفوس سامعيه، فيضجرون من استماعهم وينصرفون عن متابعة خطبته وخاصة إذا كرر عرض الفكرة الواحدة بصيغة واحدة ولون واحد من ألوان التعبير وهذا ـ لا شك ـ يدل على قلة زاد بيان الخطيب وضعف مقدرته الخطابية، وأما الخطيب القوي المتمكن فلا يتعصي عليه عرض الفكرة الواحدة في أساليب متعددة وأثواب مختلفة، بل يختار من ضروب التعبير ما شاء، ثم يسكب فكرته الواحدة فيما اختاره من الأساليب ليخرجها إلى الناس بأثواب قشيبة وقوالب متنوعة، فيتمتعون بسماعها، ويتلذذون بفهمها، كما تخرج العروس ليلة زفافها إلى صويحباتها بأثوابها وأشكالها وزينتها، فلا تملّها العيون، ولا تسأم منها النفوس.

وبهذا تثبت الفكرة في الأذهان لأنها توجهت إلى أسماع الناس في تلك الأشكال المختلفة والألوان المتعددة.

هذا وتتنوع أساليب الكلام وتعابير الخطاب إلى عدة أنواع من أهمها:

1 ـ الإخبار:

مثل قول سيدنا علي كرم الله وجهه: «أما بعد، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلاع، وإن المضمار اليوم والسباق غداً».

2 ـ الأمر:

ومنه قول سيدنا علي رضي الله عنه: «فلتكن الدنيا في أعينكم أصغر من حثالة

القرظ وقراظة الحلم، واتعظوا بمن كان قبلكم قبل أن يتعظ بكم من بعدكم وارفضوها ذميمة، فإنها رفضت من كان أشغف بها منكم».

3 ـ النهي:

ومثاله قول سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم، ولا يفتنّكم عن دينكم، فعالجوه بالذي تعجزونه، ولا تنتظروه فيلحق بكم».

4 ـ القسم:

مثاله قول سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في إحدىٰ خطبه: «وايم الله، إني لأقول لكم هذه المقالة، وما أعلم عند أحدٍ منكم من الذنوب أكثر ممّا أعلم عندي».

5 ـ الاستفهام:

مثاله قول سيدنا عليّ كرَّم الله وجهه: «أين من سعىٰ واجتهد، وجمع وعدّد وبنىٰ وشيّد، وزخرف ونجّد، وبالقليل لم يقنع، وبالكثير لم يمتّع؟».

6 ـ الاستنكار:

مثاله قول داود بن عليّ: «أيها الناس! حتّام يهتف بكم صريخكم؟ أما آن لراقدكم أن يهبّ من نومه؟ ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14] أغرّكم الإمهال حتى حسبتموه الإهمال...».

7 ـ التعجب:

ومثاله قول أحد الخطباء: «ما أجل القلوب حين تستضيء بنور الإيمان! وما أعظم النفوس حين تستقيم على هدي القرآن! فليس كالإيمان نور يضيء فيكشف ظلمات الغيّ والضلال، وليس كالقرآن منهاج ينجو به العبد من التواء مسالك الحياة».

8 ـ التشويق:

ومثاله قول الرسولﷺ: «ألا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم».

سبل تقوية الأسلوب الخطابي:

ذكرنا سابقاً أن الأسلوب يتألف من الأنماط والتراكيب التي يسوق المتكلم أو الكاتب عبرها أفكاره ومعانيه.

وبقدر ما يكون اختيار الألفاظ مناسباً، وصياغة التراكيب محكمة يكون الأسلوب قوياً متيناً.

ونقصد بالألفاظ والتراكيب ـ هنا ـ الألفاظ والتراكيب العربية الأصيلة البريئة من الغريب الدخيل والعامي المرذول.

وقوة الأسلوب الخطابي تستند إلى مدىٰ اصطباغه بصبغة العربية الأصيلة وتحلّيه بخصالها الكريمة في أداء المعاني والتعبير عن الأفكار، فوجب على الخطيب في سبيل تقوية أسلوبه أن يرجع إلى مصادر اللغة العربية ومنابعها الصافية ليستمد منها زاده اللغوي، ويأخذ حاجته من الألفاظ والتراكيب.

مصادر العربية الفصحىٰ:

1 ـ القرآن الكريم: من أهم مصادر اللغة العربية وأعلاها وذروة سنامها. فمن عُني بتلاوته وأكثر منها، وحرص على أن يحفظ كثيراً من آياته وسوره فيستقيم لسانه، ويحسن بيانه، ويجمل منطقه، ويسدّد قوله، وتغزر لغته وتشرق فكرته، ويجزل رأيه وينصع فهمه، لأن القرآن الكريم بلغ في الفصاحة والبلاغة الدرجة العليا والغاية القصوىٰ، فهو يعلو ولا يعلىٰ عليه، وكل كلام سواه مهما سما فصاحة وبياناً ينحطّ عن رتبته ويقصّر عن بلوغ درجته.

2 ـ الحديث النبوي الشريف:

خصّ الله تبارك وتعالى نبيّه محمداً ﷺ دون سائر المتكلمين من خلقه ببلوغه ذروة الفصاحة وأعلىٰ درجات البلاغة فانطلق لسانه الشريف بالبيان الرائع والكلام المعجز، فكان حقاً أعظم الخطباء.

لذا تعتبر الأحاديث النبوية الشريفة التي تتكون من كلامه عليه الصلاة والسلام المصدر الثاني بعد القرآن الكريم للّغة العربية الأصيلة، فمن أراد أن يسدد لسانه ويحسن بيانه ويجمّل منطقه، ويطلق حديثه في المسالك اللغوية المتوازنة المؤثرة، فعليه أن يعكف على أحاديث الرسول ﷺ فيقرأها قراءة المتدبر الواعي، ويحفظ منها الكثير حتى يصطبغ منطقه بصبغتها السامية الرفيعة، ويتحلىٰ بخصالها الكريمة، ويستقيم لسانه على نسقها المحكم المبين الرائع المنير. وخاصة خطب الرسول عليه الصلاة والسلام، فهي أعظم زادٍ بيانيّ وأنفع غذاءٍ فكري لكل خطيب أراد الصعود إلى أعلىٰ مراتب القدرة الخطابية وأرفع درجات الروعة البلاغية.

3 ـ كلام الصحابة رضوان الله عليهم:

هم أقرب الناس إلى عظمة البيان النبوي، إذ أصغَوا بقلوبهم وعقولهم ومشاعرهم إلى حديث الرسول ﷺ ونقلوه إلى الجيل من بعدهم، فاكتسبوا إلى جانب ما رزقوه من فصاحة اللسان وجمال البيان قوة في التأثير ودقة في التعبير وسعة في الخيال وسمواً في

المقال، فأضحوا مصدراً موثوقاً من مصادر اللغة العربية الفصيحة، ومورداً من أصفىٰ مواردها، ويخص بالذكر من كلامهم الخطب التي ألقاها كبار الصحابة الكرام، فهي زاد ثمين لكل خطيب ابتغىٰ دعم أسلوبه بقوة بيانية عالية مؤثرة، فلقد كان من أصحاب رسول اللهﷺ كل خطيب مفوّه ومتحدث مسقع، وخاصة الخلفاء الأربعة.

فخليق بكل من أراد بلوغ أرقىٰ المنازل في حقل الخطابة أن يجعل من خطب الصحابة الكرام وكلامهم زائداً له في هذا الميدان الجليل والمضمار العظيم وهادياً يهديه إلى تحقيق غايته وتحصيل بغيته.

4 ـ كلام التابعين:

وهم يأتون في درجة قوة البيان وفصاحة اللسان بعد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ولقد ظهر فيهم كبار الفصحاء وأجلّ البلغاء وأقوىٰ الخطباء من طارت بشهرتهم الأخبار، وحارت في روائع بيانهم الأفكار، وأغار ذكرهم في الناس وأنجد، فوصل إلينا من فيض عقولهم وسحر مقالهم وبديع خطبهم ما يذكي العقول، ويصقل القرائح ويطلق الألسنة بأطيب الحديث ورائع البيان وجميل الخطاب.

خلّف هؤلاء إرثاً خطابياً رائعاً، حريّ بخطباء زماننا أن يرجعوا إليه، ليقتبسوا منه الأساليب الجيدة والتعابير الجميلة ويحفظوه وينتهجوه.

5 ـ التراث اللغوي العربي:

ما جاءنا عن العرب قبل الإسلام وبعده من النثر والشعر يعدّ مورداً ثرًّا من موارد الفصاحة والبيان؛ فالشعر يمتاز بروعة التصوير وسعة الخيال وجمال الصياغة، والنثر له خصائصه التصويرية الرائعة وأساليبه التعبيرية البديعة.

وكلاهما زاد لغوي وفير يفتقر إليه مريد الخطابة ليستمد منه الألفاظ والتراكيب وألوان الأساليب، ويرجع بفائدة ذلك على خطبته حيث تظهر ثمرته في روعة بيانها وجمال أسلوبها ودقة تعبيرها وحسن أدائها.

الاستشهاد في الخطبة

تعريفه:

هو الإتيان بنصّ (قرآن أو حديث، أو قول منثور أو منظوم، أو قصة) يؤيد به الخطيب رأيه، ويقوي حجّته، ويدعم قوله، ليكون أقدر علىٰ إقناع السامعين وكسب ثقتهم والتأثير في نفوسهم.

أهميته ومكانته:

إن أية فكرة يودّ أن يطرحها إنسان ما على جمهور من الناس لا تجد وقعاً في نفوسهم وقبولاً كاملاً في عقولهم ما لم يدعمها ويعضدْها بالشواهد المناسبة التي تستحوذ على ثقتهم وتكسب قناعتهم واطمئنان قلوبهم؛ لأنّ الشاهد المناسب الذي لا تختلف عليه العقول، ولا تختصم فيه المفاهيم يعتبر قوة ترسيخ وتثبيت للأفكار والمعاني الملقاة على أسماع الناس وأذهانهم، فيكونون بها أشد اهتماماً وأكثر اعتداداً وذلك لأن ثقة الناس تتفاوت بتفاوت منزلة المتكلمين، فإذا كان المتكلم شخصاً عادياً أو ذا منزلة بسيطة في الناس؛ فإنه يضطر لكسب ثقة السامعين لقوله إلى أن يؤيده بكلام من تشتدّ ثقة الناس به. وثقة الناس أيضاً تتدرج بتدرّج منزلة من ينسب إليه القول المستشهد به.

شروط الشاهد:

1 ـ أن يكون مناسباً للفكرة المستشهد عليها به:

فإذا لم تتفق فكرة الشاهد مع الفكرة المستشهد به عليها، فلا يعدّ الاستشهاد به صحيحاً؛ لأن الغرض من سوق الشاهد هو دعم الفكرة التي يعالجها الخطيب وتأييدها به، وهذا لا يتحقق إذا جاءت فكرة الشاهد مخالفة لفكرة النص الخطابي.

وقد نجد بعض الخطباء أو الوعّاظ يقعون في مثل هذا العيب، فيستشهدون على كلامهم بنصوص القرآن أو الحديث أو كلام السلف، ولا نجد أي ارتباط بين ما يقولون وبين الشاهد الذي يأتون به، وأحياناً يستشهد بعضهم على فكرته بما ينقضها، ومرّد ذلك إلى جهله بالمعنى المراد من الشاهد.

2 ـ أن ينسب الشاهد إلى من يثق الناس به أكثر ممن يستشهد به: فلا يليق بالمتكلم أن يستشهد بقول من هو دونه علماً ومعرفة، لأن الغاية من ذكر الشاهد تقوية كلام المتكلم في نفوس السامعين، والإنسان لا يتقوىٰ بمن هو أضعف منه، بل العكس، وكذلك الفكرة لا يقويها في نفوس المخاطبين بها والمستمعين إليها إلا الاستشهاد عليها بما ينسب إلى من هو أقوىٰ مكانة وثقة في نفوس أولئك المستمعين من المتكلم بتلك الفكرة.

3 ـ ألاّ يكون الشاهد طويلاً حتى لا يعرب السامعين عن الموضوع الأصلي: فهناك من الخطباء من يتوسع في شواهد خطبته إلى حدّ طغيان تلك الشواهد على أفكار موضوعه، فتجده يستشهد على فكرته بشاهد قرآني أو حديث نبوي شريف، ثم يأخذ في

تفسير ذلك الشاهد وبيان المعاني العديدة التي يفيض بها وتوضيح اللفتات الجميلة الفكرية واللغوية التي اقتبسها العلماء منه، فإذا بالشاهد يجتاح معظم الخطبة، ثم يصبح غاية يبحث الخطيب فيها بعد أن كان مجرد شاهد سيق تأييداً لفكرة الموضوع، فينجم عن ذلك انصراف السامعين عن فكرة الخطبة الرئيسية واهتمامهم بالشاهد، ملتفتين إلى المعاني والإشراقات التي تدفقت منه.

4 ـ أن يكون الشاهد صحيح الوقوع، قويّ الورود عن أصحابه، فلا يصح الاستشهاد بالقصص الخرافية والمكذوبة، ولا بالأحاديث الموضوعة ولا بالضعيفة في المواضع التي لا يقبل فيها الاستشهاد بالضعيف، ولا بالأقوال التي لم تثبت نسبتها إلى أصحابها، فيجب على الخطيب أن يتحرىٰ الشاهد تماماً، ويتأكد من صحة وروده وصدق حدوثه قبل أن يذكره في موطنه من الخطبة.

5 ـ أن يكون الخطيب متين الحفظ للشاهد دقيقاً في نقله وإلقائه:

لأن أي تغيير يطرأ على الشاهد أو نسيان لفقرة منه أو كلمة قد يؤدي إلى عدم تحقق فائدته، ويفقد قوة تأثيره في النفوس وخاصة الشاهد القولي.

ولتفادي الوقوع في مثل هذا الأمر يتحسن من الخطيب أن يتأكد من قوة حفظه للشاهد وقدرته على أن يؤدّيه كاملاً دون أيّ نقص أو تغيير يؤثر في تحقيق فائدة ذكره.

أنواع الشاهد

للشواهد أنواع عديدة نذكر في ما يأتي أهمها:

1 ـ القرآن الكريم:

يعد القرآن الكريم من أعظم وأقوىٰ وأهم مصادر الاستشهاد على الإطلاق، إذ هو الحجة الكبرىٰ، والحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والدستور الإلهي المبين الذي أنزله الله سبحانه على قلب رسول الله ﷺ، وأودع فيه من الحقائق والأسرار ما يقف حياله العقل البشري مذهولاً متعجباً متسائلاً: كيف تمكن القرآن الكريم من كشف تلك الأسرار والدقائق الكونية المعجزة منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام، بينما نجد العقل البشري ما يزال يعاني في زماننا من كثير من العقبات التي تقف في وجهه، فتحول ما بينه وبين معرفة كثير من أسرار الكون، وما يتمكن من معرفته من تلك الأسرار لا يتعدّىٰ أن يكون قطرة من بحر لجّيّ لا ساحل له، أو ذرّة من صحراء مترامية الأطراف.

شروط الاستشهاد بالقرآن الكريم:

1 ـ الحفظ المتين للنص القرآني وعدم الخطأ في الكلمة والحرف والحركات.

إذ أي خطأ أو تغيير يطرأ على النص القرآني في الكلمة أو الحرف أو الحركة سيؤدي إلى ضعف هيمنة ذلك النص على نفس السامع، حيث يترتب على ذلك اضطراب ثقته بالخطيب وضعف إقباله عليه؛ لأنه لم يحسن قراءة آية من القرآن؛ ولا ريب في أن ثقة المستمتع بالمتكلم أساس لتحقيق الانتفاع وحصول الفائدة حال الاستماع.

2 ـ حسن تلاوة النص القرآني والحرص على النطق بكلماته وأحرفه نطقاً صحيحاً حسب أصول التلاوة وقواعد التجويد.

ولا ضير على الخطيب إذا لم يستوثق من متانة حفظه للشاهد القرآني أن يكتبه على ورقة، ويقرأه منها على الناس، فذلك أدعىٰ إلى تحقيق الغاية وتجنّب الوقوع في المحذور الذي أسلفنا ذكره، ولا يعدّ عدم استظهار الخطيب الآيات في خطبته عيباً من عيوبها.

2 ـ الحديث النبوي الشريف:

يعد الحديث الشريف أعظم شاهد منزلة بعد القرآن الكريم، فهو الحجة التي تبلج فيها الحق ناصعاً مشرقاً واستبانت في أرجائها الحقائق لا لبس فيها ولا غموض، لأن الله سبحانه اختص رسوله محمداً ﷺ بمقام لا ينبغي لمخلوق سواه، فأطلق لسانه حقاً لا تعتريه شائبة هوىً ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: 3، 4].

شروط الاستشهاد بالحديث الشريف:

1 ـ يجب التأكد من صحة نسبة الحديث إلى الرسول الكريم ﷺ ويتم ذلك بالرجوع إلى مصادر الحديث الشريف.

وأما ما يقع فيه بعض الخطباء من الاقتصار في استشهادهم بالحديث على ما حفظوه من سماعهم، فهو أمر غير محمود، وعليه مآخذ كثيرة من أخطرها أن الخطيب ربّما يسوق الحديث سوقاً غير صحيح.

2 ـ يجب على الخطيب الدقة في نقل الحديث ومعرفة الراوي من الصحابة والراوي من المحدثين وحفظ متنه حفظاً جيداً وخاصة الحديث المروي باللفظ والمعنىٰ، إذ يقسم العلماء الحديث إلى قسمين:

1 ـ حديث مروي باللفظ والمعنىٰ.

2 ـ حديث مرويّ بالمعنىٰ فقط.

ولقد أكّد فريق من العلماء ضرورة رواية الحديث بألفاظه دون التصرف فيه، وغايتهم من ذلك سدّ باب الرواية بالمعنى، لئلا يتسلّط عليه من لا يحسن العربية ممن يظن أنه يحسنها فينجم عن ذلك اختلال بيان الحديث وتغيّر مدلولات كلماته لاستبدال ألفاظ أخرى بألفاظه الأصيلة ظناً ممّن يحدث بهذا الحديث أنها تؤدي مدلولاتها نفسها، وهي ليست كذلك.

3 ـ تفسير معاني الكلمات الغامضة والعبارات التي خفي معناها عن الناس، وقد مرّ هذا الشرط في بحث الاستشهاد بالقرآن الكريم، وإننا نقرره هنا، فإذا خفي معنىٰ لفظة أو عبارة في الحديث الذي يذكره الخطيب؛ فمن المستحسن تفسير معنىٰ تلك اللفظة أو العبارة تحقيقاً للفائدة.

4 ـ تجويد قراءة الحديث الشريف: ويعني بذلك أن يخص الخطيب الحديث الشريف بنمط من القراءة يميّزه عن سائر كلامه، فيعنىٰ بمخارج حروف ألفاظه وأداء كلماته وعباراته أداءً يلتزم فيه محاسن الإلقاء وأحكام القراءة التي نعهدها في تلاوة القرآن الكريم.

3 ـ الأقوال المأثورة:

أولاً: أقوال الصحابة رضي الله عنهم:

يعد كلام الصحابة الكرام الحجة بعد كلام رسوله اللهﷺ، حيث كانوا أقرب الناس إلى مشكاة النبوة، عاشوا مع الرسول ﷺ ونهلوا من مورده الصافي، فأشرقت قلوبهم وعقولهم بالمعارف والعلوم الجمّة التي تدفق سلسالها عليهم من ينبوع المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام، فكان منهم أخطر الناس شأناً وأغزرهم علماً وأوسعهم معرفة، وأوفرهم عقلاً وأدراهم سياسة وأحسنهم تدبيرًا، فكانوا إذا تكلموا جرت الحكمة على ألسنتهم وتجلىٰ الحقّ في بيانهم.

ثانياً: أقوال السلف الصالح:

والسلف الصالح هم الذين عاصروا الصحابة الكرام أو عاصروا من عاصروهم وساروا على نهجهم وهم التابعون وتابعو التابعين ومن لزم خطتهم ممن جاء بعدهم وأخذ عنهم، وهم يعتبرون الجسر الذي عليه عبرت الشريعة الإسلامية حتى بلغت الأجيال من بعدهم حيث وعت عقولهم مبادىء الشريعة الغرّاء وحفظت صدورهم

أحكامها واستضاءت قلوبهم بأنوارها، فكانوا مشاعل هداية ونبراس حقيقة، وجاءت أقوالهم وأحاديثهم حقاً لا يشوبه باطل ونوراً لا يغشاه ظلام.

ثالثاً: أقوال علماء الإسلام:

وهم أولئك الذين جاؤوا بعد عهد السلف الصالح وإلى أيامنا هذه.

فهم في الحقيقة امتداد لذلك الجسر الشامخ الذي عبرت عليه شريعة الإسلام لتصل إلى الأجيال البشرية المتلاحقة على وجه الأرض إلى آخر الزمان.

والعلماء الثقات هم الحجة في كل زمان ومكان، فإذا تكلموا بأمر الله، ودعوا الناس إليه وجاهدوا في سبيل ذلك حقّ الجهاد؛ جاء كلامهم وثائق حقّ تفري أديم الباطل فرياً، ونبراس هدي ينير الطريق للسالكين ويضيء آفاق المسترشدين.

شروط الاستشهاد بالأقوال المأثورة:

1 ـ وجوب التأكد من نسبة الأقوال إلى أصحابها: ويكون ذلك بالرجوع إلى المصادر الأصلية الموثوقة، وعدم الاقتصار على محفوظات الذهن أو كتابة أصحاب الفكر المحدثين الذين لا يتورعون عن نسبة الأقوال إلى غير أصحابها بخلاف المحققين منهم.

2 ـ وجوب التثبت من صحة ألفاظ المصادر الكتابية وعباراتها: إذ يحدث أحياناً تصحيف أو تحريف في كلمة من كتاب لأحد العلماء أو سقوط لفظة أو عبارة من بعض نصوصه، فينشأ عن ذلك تغيّر معنىٰ السياق، فوجب على الخطيب التأكد من صحة الألفاظ وسلامة التراكيب قبل أن يستشهد بها في موطن الإستشهاد.

رابعاً: أقوال أهل الفكر وعلماء الكون:

هم أولئك العلماء والمفكرون الذين بحثوا في الكون والحياة ونقبوا في مختلف الميادين ـ فاكتشفوا كثيراً من الحقائق والأسرار والدلائل الشاهدة على وجود قوة غيبية مهيمنة على هذا الوجود فكان ذلك البحث والاكتشاف سبيلاً إلى هداية قلوبهم بعد ضلالها وسبباً في إيمانهم بعد جحودهم، أو قربهم من ذلك الإيمان.

شروط الاستشهاد بأقوال أهل الفكر وعلماء الكون:

1 ـ التحقق من صحة نسبة القول إلى قائله وصدق وروده عنه.

2 ـ إذا كان المستشهد به يتعلق بتفسير نظرية علمية أو تعليل إحدى الظواهر الكونية وجب ألا يكون معارضاً بأقوال أخرى هي أقوى حجة وأكثر صواباً.

3 ـ ذكر اسم صاحب القول المستشهد به، وذكر المصدر الذي استقىٰ منه الخطيب ذلك القول.

خامساً: المثل:

تعريفه: هو تشبيه شيء بشيء لوجود عناصر التشابه بينهما، وهو وسيلة بها يتوصل المتكلم إلى تقرير ما يريده من المعاني في نفوس المخاطبين وتقريبها إلى عقولهم واكتساب ثقتهم وقناعتهم بما يلقيه عليهم.

أهمية المثل وضرورته:

إن الإنسان يميل بطبعه إلى ما يستأنس به ويألفه، فيقبل عليه ويصدقه بكامل الرضا ومطلق التسليم.

وفي سبيل كسب قناعته بأي شيء يلقىٰ عليه من الآراء والأفكار والمعاني ينبغي أن يقرّب إليه بمقاييسه ومشابهته بما هو مأنوس ومألوف لديه، حيث يلتفت بذهنه وأحاسيسه إلى ذلك المأنوس المألوف، فيلاحظ أن بينه وبين ما ألقي عليه شبهاً وتقارباً، فيجعله ذلك يتلقىٰ ما ألقي عليه بالرضا والاقتناع، ويتحقق له فيه الاتعاظ والاعتبار.

أقسام المثل: ينقسم المثل عقلاً إلى أربعة أقسام هي:

1 ـ تمثيل مدرك بالحس الظاهر بمدرك بالحس الظاهر:

مثال: الرجل الشجاع أسد.

2 ـ تمثيل مدرك بالحس الظاهر بمدرك بالفكر:

مثال: تمثيل الأعداء بالكراهيات.

3 ـ تمثيل مدرك بالفكر بمدرك بالحس:

مثال: تمثيل العلم بالنور والجهل بالظلمة.

4 ـ تمثيل مدرك بالفكر بمدرك بالفكر:

مثال: تمثيل الإيمان بالطمأنينة، والنفاق بالقلق والاضطراب النفسي.

أنواع المثل: للمثل عدة أنواع، أهمها:

1 ـ ما يجري على ألسنة الناس ويشيع في أحاديثهم.

2 ـ سوق الحادثة أو القصة بغية الاعتبار بخاتمتها.

3 ـ القصص الرمزية التي تكون الغاية من وضعها الاعتبار فقط.

4 ـ الحكم والحكايات التي تروىٰ على ألسنة الحيوانات والطير.

5 ـ التمثيل بالمحسوسات لإدراك المعنويات وعكسه.

سادساً: القصة:

تعريفها: القصة معبر تنتقل بواسطتها الأفكار والمفاهيم إلى الآخرين، وذلك لما تتمتّع به من قوة التأثير في النفوس وعوامل السيطرة على العقول، والقدرة على تأجيج العواطف والمشاعر وإغناء الأخيلة والخواطر.

وتمتاز القصة بخصال قيّمة من أهمها:

1 ـ أنها وسيلة تربوية رائعة ذات أثر عميق في تربية الفكر والضمير والسلوك.

2 ـ أنها من أعظم فنون الأدب مقدرة على تحويل المعاني المجردة إلى وقائع محسوسة.

شروط الاستشهاد بالقصة:

1 ـ ألا تكون مختلقة كالأمثال والقصص التي يضعها القصاصون وينسبونها إلى شخصيات معروفة، وغايتهم في ذلك الترغيب والترهيب أو الإفراط في بيان قدر مقام الأجلاء من رجال الأمة وأعلامها.

2 ـ ألا تكون موغلة في الغرابة نائية عن الواقع المحسوس أو الغيب المعقول كأمثال القصص الواردة في بعض كتب التاريخ والتفسير والوعظ ونحوها.

3 ـ ألا تكون بعيدة من مقتضىٰ المنطق فاقدة دواعي استجابة العقل وقناعة الفكر كبعض القصص الخرافية التي تتعارض مع الواقع.

4 ـ ألا تكون مخالفة للحق ومبادىء الشريعة السامية وأخلاق دين الله الحنيف.

الخطابة بين الإبداع والتقليد

يعمد بعض الخطباء إلى تقليد أسلافهم أو مشاهير خطباء عصرهم تقليداً ينسلخون فيه عن ذواتهم ليتقمصوا شخصية أولئك الخطباء الأسلاف أو المشاهير.

فتجد الواحد منهم حريصاً على أن يأتي بكل ما يعرفه عن الخطيب الذي يقلّده من أفكار وعبارات وأحوال وحركات وأوضاع، فينصرف بذلك عن ذاته انصرافاً كلّيًّا، وتصبح أفكاره ومشاعره وقريحته خاضعة في حركاتها واتجاهها لمن يقلّده من الخطباء، فتأتي خطبته ضعيفة التأثير، لأنها لم تشعّ من مشكاة فكره ولم تتدفق من معين عاطفته

ولم تخرج معانيها من أعماق نفسه وإنما جاءت أفكارها وألفاظها وعواطفها من ساحة غيره، ولم يزد هو على أن يكون مجرد بوقٍ لسواه.

أما الخطيب المتقن الممارس فإنه إذا اقتصر في اقتدائه لمشاهير خطباء عصره أو السابقين على الانتفاع بأفكارهم وآرائهم، فهذا شيء حسن وجميل، بل هو لو نهل من معين ألفاظهم وعباراتهم، واكتسب من أساليبهم وحاكىٰ طرائق نسج خطبهم لكان أمراً محموداً ما دام متمتعاً بشخصيته المستقلة، إذ يأخذ هذا الذي استفاده منهم فيؤلف بينه ويزيد عليه ليخرج منه شيئاً جديداً يتجلّى فيه إبداعه وابتكاره.

الخطبة بين التكرار والتجديد

يعد التجديد في موضوع الخطبة أمراً ضرورياً يقتضيه تطور الحياة المستمر والتجدد الذي يطرأ على واقع الناس في أحوال معاشهم وظروف حياتهم واتجاه ثقافتهم ومظاهر منجزاتهم، ذلك لأن موقع الخطيب في الناس يقتضي التصاقه بمختلف ظروف حياتهم وأن يكون قريباً من واقعهم الذي تجري فيه التطورات وتكثر فيه المتغيرات، فيفرض عليه ذلك أن يختار من مواضيع الخطب ما يناسب تلك الأمور المتجددة في حياة الناس.

وأما تكرار مواضيع الخطب، بإعادة الموضوع الواحد منها أكثر من مرة، فهو خصلة لا تحمد إلا في ضرب معيّن من الخطب؛ لأنه يورث المستمعين السآمة من جهة والشعور بعدم الاستزادة من النفع من جهة أخرىٰ، كما ينمّ عن ضيق أفق الخطيب العلمي والثقافي وعجزه عن إمداد جمهوره بحاجته المتجددة من الفائدة.

وقد نلمس هذا المسلك العاجز في فريق من الخطباء حيث نجد أحدهم يلزم في جميع خطبه ضرباً من الموضوعات لا يبرحه في مختلف المناسبات وخاصة في أيام الجمعات حيث يقيد نفسه بعدد من الموضوعات يعيدها ويكررها في كل عام غير عابىء بالمتجدّدات الفكرية والاجتماعية والعلمية التي يتمخض عنها استمرار الحياة البشرية.

الخطبة بين التطويل والتقصير

تعد مسألة تطويل الخطبة وتقصيرها مسألة نسبية يخضع تقديرها للموضوع والمناسبة والجمهور.

فموضوع الخطبة ومناسبتها وجمهور المستمعين، هذه الثلاثة هي التي تحدد مقدار الخطبة من حيث الطول والقصر.

وليس من الحكمة أن يطيل الخطيب خطبته إذا كان في مناسبة تضم لفيفاً من الخطباء والمتكلمين الذين اقتضىٰ برنامج الاحتفال بتلك المناسبة أن يتماوروا الصعود إلى تلك المنصة. وينبغي للخطيب أيضاً أن يتجنب إطالة الخطبة إذا كان يلقيها على جمهور من المستمعين قلّ فيهم المثقفون، وكثر البسطاء والعوام، لأن مثل هذا الجمهور لا يستطيع متابعة الخطيب ذهنياً أكثر من بضع دقائق.

وكذلك إذا قام الخطيب في الناس متكلماً في جمهور يضم أهل العلم والثقافة، ويقلّ فيه البسطاء، فلا تذم إطالته وتوسّعه في عرض موضوعه وتعمقه في معالجة أفكاره وآرائه بل يحمد على ذلك لأن جمهوره يملك الاستعداد الكامل للتلقي الطويل والقدرة على الاستيعاب.

الارتجال

الارتجال هو الكلام الذي ينزع معناه من النفس حال إلقائه، ويصدر عن انفعال نفسي يكون أبلغ تأثيراً في نفس السامع وأسرع إلى ملك عواطفه ومشاعره.

فالارتجال يرتبط ارتباطاً وثيقاً بظاهرة الانفعال النفسي والتوقد العاطفي لأن المتكلم المرتجل يستمد أفكاره وكلماته من عطاء الظرف الذي هو فيه والمقام الذي يقومه، فتأتي خطبته منسجمة مع واقع الجمهور المستمع إليه، لأنها وليدة آنِها بألفاظها وأفكارها.

ولكن لا يحسن هذا الضرب من الخطب إلا من كانت له تجربة عميقة وخبرة دقيقة في مجال الخطابة، فكان جريء القلب غزير الاطلاع سريع البديهة ثريّ اللغة واثق النفس.

وأما من ضحلت معارفه، وهزل بيانه وخار قلبه، وضعفت جرأته وأبطأت بديهته، فإنه لن يجرؤ على الارتجال لأن هِبة المواقف وهيبة المقام يجعلان الأفكار تنأىٰ عن ذهنه والكلمات تغرب عن لسانه، فيتلجلج في موقفه ويخفق في حديثه..

والارتجال ضرب محمود في الخطبة، وخاصة إذا كان الظرف يستدعيه والمناسبة تتطلّبه، فإذا طلب من الخطيب الكلام في حفل ما ولم يكن معداً نفسه للخطبة، فإن مقدرته على الارتجال تسعفه في موقفه هذا، فيؤدي خطبته على أكمل وجهها دون حرج أو إرهاق.

ومن دواعي محاور الارتجال وحاجة الخطباء إليه ما يعرض للخطيب أثناء خطبته من أمور ومواقف تضطره إلى أن يغيّر من بعض الأفكار والشواهد التي كان قد زوّرها

في نفسه وأعدّها قبل إلقاء خطبته، ويأتي بما يتناسب مع الظرف الطارىء والموقف الذي استدعىٰ هذا التعديل المفاجىء.

فيضاف إلى ذلك أن ثمة نوعاً من الخطب يفتقر إلى الارتجال ليكون أقوىٰ تأثيراً وأنفذ في نفس السامع، وهذا الضرب من الخطب هو الذي يرتكز إلى العاطفة المتدفقة والحماسة الثائرة، فحيث وجد الظرف الذي يستثير المشاعر ويؤجج العواطف كان الارتجال أصلح وأبلغ، لأن العاطفة الثائرة ترتبط بشدة مع ظرف المناسبة والجمهور المستمع، وتخضع لأدنىٰ تغيّر يطرأ على جوّ المناسبة التي تلقىٰ فيها الخطبة وهذا لا يتأتىٰ إحكامه من نطاق الإعداد المسبق للكلام لأن الخطيب لم يكن يعيش حال إعداده خطبته هذه الطوارىء التي انتابت أجواء حديثه؛ بل لم يكن يتوقعها.

الإعداد

الإعداد هو الذي ينتج الأفكار الناضجة والمعاني المتناسقة والألفاظ المناسبة المنمقة الموحية، والسبك الرائع المعجب والأداء القوي المشرق والنفس الطويل. فلا يستطيع الخطيب أن يقدم موضوع خطبته كامل الأفكار متزن المعاني بديع الألفاظ رائع التعبير إلا بعد إعداد مسبق، حيث يخلو بمعارفه ومطالعاته، فيختار منها ما يناسب موضوعه، ويرتّبه ويصفه وصفاً محكماً كلبنات البناء الواحد، ويتخيّر العبارات المناسبة التي تمنح خطبته جمالاً وتأثيراً.

وظاهرة الإعداد ليست دليلاً على ضعف الخطيب وضمور قدرته الخطابية، بل نجد في الإعداد دليلاً على مدىٰ عناية الخطيب بموضوع خطبته واهتمامه بجمهوره الذي ينتظر منه النفع ويبتغي تحصيل الفائدة، إذ لو ارتجل خطبته ولم يعدّ أفكارها ومعانيها الإعداد المناسب لجاءت ضعيفة الغذاء قليلة الماء شاحبة الرواء عاجزة عن معالجة الموضوع من جوانبه كافة بصورة محكمة وطريقة صحيحة.

أقسام إعداد الخطبة:

ينقسم إعداد الخطبة إلى قسمين هما:

1 ـ الإعداد الذهني: هو تهيؤ أفكار الخطبة وألفاظها في الذهن قبل إلقائها وهذا ما تناولناه في السطور السابقة.

2 ـ الإعداد الكتابي: هو ألا يقتصر الخطيب على تهييء معاني خطبته وكلماتها في ذهنه وإنما يثبت ذلك كتابة على الورق.

عدة الخطيب

1 ـ العلم: لا شك في أن أهم ما يجب أن يعتدّ به الخطيب هو العلم لأنه في مقامه معلم للمستمعين إليه، ومبيّن لهم ما خفي عليهم من المسائل وما جهلوه من الأحكام وناشر للحكمة والموعظة على أرض عقولهم وفي ساحة قلوبهم، فوجب على الخطيب أن يكون متفقهاً في الدين عارفاً بأحكام الشريعة معرفة تمكنه من بذل ما يحتاج إليه الناس من أمور إسلامهم وتصورات عقيدتهم.

والعلم يمدّ الخطيب بقوة تمكّنه من الاستمرار في كلامه ومتابعة حديثه إلى غايته دون أن يتلكأ أو يتحرج.

والخطيب الناجح هو الذي لا ينقطع عن الاستمداد وطلب العلم مهما غزرت معارفه، وزادت علومه وعوارفه، لأنه في مقام الإمداد والإرشاد، فإذا انصرف عن موارد العلم واكتفى بما في جعبته من الفوائد والعلوم، أوشك بسبب استمرار إعطائه أن تفرغ محصّلته ويجفّ مخزونه ويضعف مردوده وتقل فائدته.

2 ـ تنوع الثقافة واتساعها:

تعد سعة الثقافة لدى الخطيب وتنوعها من أسباب نجاحه وقوته ومن مقومات نفعه وتأثيره؛ لأنه يغدو بثقافته المتنوعة ومعارفه المتعددة أشبه بالحديقة الغناء التي يضمّ روضها المناظر الخلاّبة والألوان المختلفة والمياه الرقراقة والأصوات الندية والروائح الشذّية.

وإذا اتسعت ثقافة الخطيب، واختلفت ألوانها، كان تأثيره في النفوس عميقاً واستيلاؤه على القلوب والمشاعر كبيراً لأن الحاضرين يشعرون بإفادتهم منه مهما تنوعت ثقافتهم وتفاوتت مفاهيمهم واختلفت طباعهم وتصوراتهم.

ومن أهم وسائل تنويع الثقافة وتوسيع نطاقها: كثرة المطالعة في مختلف مجالات المعرفة وميادين الثقافة في علوم الشريعة الإسلامية وفي التاريخ والجغرافية والاجتماع وعلم النفس واللغة العربية وعلومها وفي سائر علوم العصر ومعارفه.

3 ـ الاطلاع الدائم على كل نبأ جديد:

لا شك في أن تكرار لقاء الخطيب الناس بمختلف طبقاتهم وشتىٰ مستوياتهم الثقافية يفرض عليه أن يكون بثقافته ومفاهيمه منسجماً مع واقع الناس المتجدد في أفكاره وأحداثه، وهذا الانسجام المطلوب يحدو به إلى أن يكون دائم الاطلاع على كل نبأ جديد ينشأ من واقع الحياة المتطورة العصرية فكرياً وعلمياً واجتماعياً.

وهذا الاطلاع المستمر على مختلف المتجددات الحيوية يجعل الخطيب قريباً من واقع الناس عارفاً بأحوالهم خبيراً بمختلف شؤون حياتهم متفهماً لجميع الملابسات والظروف التي تطرأ على حركة نشاطهم الفكري والسلوكي.

وسبل الحصول على الأنباء الجديدة كثيرة جداً منها:

1 ـ المؤلفات والرسائل الحديثة الفكرية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

2 ـ الصحف والمجلات.

3 ـ الندوات والبرامج والأنباء الإذاعية والوثائق.

4 ـ أدب اللغة العربية وبيانها:

تعد اللغة العربية بألفاظها وتراكيبها وبلاغتها المعبرة التي يعبُر منها الخطيب إلى عقول الناس وقلوبهم، فهي القالب الذي تصبّ فيه الأفكار والمعاني والوسيلة التي يتوسل بها الخطيب لمخاطبة الناس.

فإذا عرض المتكلم أفكاره ومفاهيمه بأسلوب أدبيٍّ رفيع متألّق يتمتع بسموّ البلاغة وسحر البيان، عَذُب وقعه في السمع وهوىٰ إليه القلب وتأثرت به النفس وبهذا تؤتي خطبته أُكُلها في نفوس المستمعين إليه وعقولهم حيث خضعوا لحسن بيانه وجمال تعبيره، وانساقوا راغبين إلى أفكاره ومعانيه المسبوكة في أروع الألفاظ وأبلغ العبارات.

وإن أهم وسائل تمتين لغة الخطيب وضبط لسانه وتحسين بيانه أربعة هي:

أ ـ كثرة تلاوة القرآن الكريم وحفظ الكثير من نصوصه.

ب ـ قراءة الحديث الشريف وحفظ عدد جيد من الأحاديث.

ج ـ قراءة خطب الصحابة والتابعين وبلغاء العرب المبدعين وحفظ عدد من تلك الخطب.

د ـ مطالعة مؤلفات تراث اللغة العربي النثري والشعري وحفظ عدد لا بأس به من النصوص الشعرية والنثرية.

5 ـ حفظ الكثير من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

يعد القرآن الكريم والحديث الشريف الموردين الأصليين اللذين يستمد منهما الخطيب الأفكار والمعاني والمفاهيم والخواطر واللغة. فهما أكبر حجة فكرية وروحية وتشريعية ولغوية، وإذا تسلح الخطيب بهما أكسباه قوة يندفع بها في حديثه إلى نهايته، مقتحماً كل عقبة تعترضه ومتخلصاً من كل مأزق يقع فيه.

فالقرآن الكريم والحديث الشريف وزَرَان يلجأ إليهما من أعيته الأدلة وأعجزته الحجج فيستمد منهما طاقة علمية وفكرية وحججاً لغوية وبيانية تزيد من همة حديثه وقوة خطابته، وتجنّبه مصاعب الخطاب، وتخلّصه من مواطن الحرج.

6 ـ علم المنطق والجدل:

لما كان الخطيب يتوخىٰ من خطبته إيصال أفكاره وأحاسيسه إلى عقول الناس ومشاعرهم، وكان الإقناع والتأثير غرضين أساسيين من إلقاء كلماتها، أصبح من المفروض على الخطيب أن يستعين بعلم المنطق، وأن يعرف قواعد الجدل والمناظرة وأساليب الإقناع، ليتمكن من عرض أفكاره بطريقة تنقاد إليها العقول وتميل نحوها القلوب.

فإذا أراد أن يقرر فكرة ما، ولغرس معناها عميقاً في عقول الناس وجب عليه ألا يفرضها فرضاً دون أن يمهّد بمقدمات تستوجب الإقناع، بل عليه أن يقدمها إلى المستمعين مشفوعة بالأدلة العقلية مع مزيج من العاطفة المشبوبة والحماسة المؤثرة.

والإلمام بقواعد التفكير المنطقي وأساليب الجدل والإقناع العقلي يحتاج إلى الرجوع إلى مصادر ذلك وهي:

أ ـ أسلوب المنطق القرآني المبين:

لقد تمكن القرآن الكريم من مخاطبة العقل البشري بأسلوب حكيم مبين خضع به العقل للحق، وأذعن للإيمان حيث اتّضحَت له الحجة واستقام عنده الدليل بتفنيد زعم الباطل وانحسار غيهب الجهل.

ب ـ أسلوب المنطق النبوي:

آتىٰ الله تعالى نبيّه محمّداًﷺ من الحجة والبرهان ما جعله يُخضع إليه أصلب العقول، ويستجيب لحكمه أغنىٰ النفوس، ويتّضح ذلك في كثير من الأحاديث النبوية الشرعية ومواقف السيرة المحمدية العطرة.

ج ـ أساليب علماء الإسلام في النقاش وطرائقهم في الجدل المثمر:

ويعرف ذلك من خلال الاطلاع على طرقهم في الاستدلال والحصول على الأحكام وما كتبوه في مؤلفاتهم، وجاء في سِيَرهم حول هذا الموضوع.

د ـ الكتب التي تتحدث عن علم المنطق وقواعد الجدل وآداب المناظرة.

7 ـ علم النفس الاجتماعي:

يواجه الخطيب في أغلب أحواله جمهوراً لا ينحصر في فئة معينة من الناس متفقة

بواقعها الفكري والسلوكي والنفسي، وإنما يجد نفسه في معظم أحواله في مواجهة جمهور يضمّ شرائح مختلفة من الناس قد تباينت مفاهيمهم وأفكارهم، وتنوعت ثقافاتهم وتعددت اتجاهاتهم، وتلوّنت طباعهم، وتفاضلت طبقاتهم، ففيهم الصغير والكبير والمثقف والعامي والغنيّ والفقير والمتحرر والمتزمت والمتعصب والمعتدل والشريف والوضيع.

ولا ريب في أن جمهوراً يحوي مثل هذا الخليط من العقول والنفوس والطباع يحتاج وعظه ومخاطبته إلى غاية الدقة ومنتهىٰ الحكمة، إذ كل منهم يفتقر إلى أسلوب معين من الخطاب ونوع مناسب من المعارف والمواعظ. وهنا يتركز ثقل مهمة الخطيب حيث ينبغي عليه أن يختار من الأبحاث والكلام ما يتناسب مع مختلف أنماط المستمعين إليه وطبقاتهم، ليتمكن من تحقيق الفائدة المرجوّة من خطبته ونقل أفكاره وأحاسيسه إلى سائر جمهوره.

وإزاء هذه المهمة الثقيلة أصبح لزاماً على الخطيب أن يكون عارفاً بأحوال النفس البشرية في تقلباتها واختلاف أطوارها دارساً دراسة واعية لظاهرة التفاوت النفسي والسلوكي في نطاق مجموعة من الناس وكيفية مخاطبتها وتوجيهها ووعظها.

أقسام الخطبة النبوية

منها ما جاء في خطب الجمع والأعياد، ومنها ما جاء في ظروف طارئة، ومنها ما كان عاماً، واتخذت من ظروف الخطبة أساساً لتقسيمها إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي:

القسم الأول: خطب دورية.

القسم الثاني: خطب طارئة.

القسم الثالث: خطب عامة.

الخطب النبوية الدورية

أ ـ خطبة الجمعة:

تعريفها: هي مجموعة المواعظ والوصايا التي ألقاها الرسولﷺ في يوم الجمعة من كل أسبوع في جمع المسلمين كركن من أركان صلاة الجمعة، وذلك بعد الهجرة.

مكانة خطبة الجمعة في الإسلام:

خطبة الجمعة من أبرز وسائل الإعلام في الإسلام، وليس من قبل المبالغة اعتبارها من أهم عوامل نجاح العمل الإعلامي الذي مارس دوره على مر العصور منذ انبثاق نور الدعوة الإسلامية في عهد الرسولﷺ إلى يومنا هذا، فلم تستطع عوامل الزمن وتعاقب الدول والحكومات أن تنال من قدراتها الإعلامية.

أحكام الجمعة ودلالاتها الإعلامية

1 ـ فرضية الجمعة:

الجمعة من أعلام الدين الظاهرة وهي فرض والأصل في فرضيتها الكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة: 9] وأما السنة فقول الرسولﷺ: «لينتهينّ أقوامٌ عن وَدْعِهم الجمعات أو ليختمنّ الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين». وعن أبي الجعد الضمري أن رسول اللهﷺ قال: «من ترك ثلاث جُمَع تهاوناً طبع الله على قلبه».

2 ـ على من تَجِب الجمعة:

هي حق واجب على كل مسلم عدا المريض والمسافر والمرأة والصبي والعبد المملوك.

عن جابر أن رسول اللهﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا مريضاً أو مسافراً أو امرأة أو صبيًّا أو مملوكاً».

وتجب على كل من سمع النداء حتى ولو كان أعمى، فقد قال النبيﷺ للأعمى الذي قال: ليس لي قائد يقودني: «أتسمع النداء»؟ قال: نعم قال: «فأجب».

3 ـ وقت الجمعة:

المستحب إقامة الجمعة بعد الزوال لأن النبيﷺ كان يفعل ذلك.

فعن مسلمة بن الأكوع قال: كنا نجمع مع النبيﷺ إذا زالت الشمس ثم نرجع نتبع الفيء.

4 ـ اهتمام الإسلام بالجمعة:

اهتم الإسلام بالجمعة لأنها ساعة يتفرغ فيها المسلم لذكر الله ويستمع إلى الوعظ والإرشاد، فهي بمثابة مؤتمر أسبوعي يجتمع فيه المسلمون من كل مكان..

5 ـ الغسل يوم الجمعة:

حث الرسولﷺ المسلمين على الاغتسال يوم الجمعة.

عن سلمان الفارسي قال: قال رسول اللهﷺ: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدّهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى».

6 ـ ثواب التبكير إلى الجمعة:

روي أن النبيﷺ قال: «من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر كان له بكل خطوة يخطوها أجر سنة صيامها وقيامها».

7 ـ مشروعية الخطبة في الجمعة:

الخطبة شرط في الجمعة لا تصح بدونها.

كذلك قال عطاء والنخعي وقتادة والثوري والشافعي وإسحاق وأبو ثور، وأصحاب الرأي.

ويقول تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 9]. والذكر هو الخطبة...

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: قصرت الصلاة لأجل الخطبة.

وقال سعيد بن جبير: كانت الجمعة أربعاً فجعلت الخطبة مكان الركعتين.

ما كان يفعله الرسولﷺ على المنبر

1 ـ الخطبة على المنبر وهو قائم:

عن جابر بن سمرة قال: رأيت النبيﷺ يخطب يوم الجمعة قائماً ثم يقعد فلا يتكلم ثم يقوم فيخطب خطبة أخرى، فمن حدثك أنَّ رسول اللهﷺ خطب قاعداً فقد كذب.

obeikandl.com

وعن ابن عمر: أن النبيﷺ كان يخطب خطبتين وهو قائم يفصل بينهما بجلوس.

2 ـ التوكؤ على قوس أو عصا:

روى الحكم بن حزن الحلفي قال: وفدت إلى رسول اللهﷺ فأقمنا أياماً شهدنا فيها الجمعة مع رسول اللهﷺ فقام متوكئاً على عصا أو قوس فحمد الله وأثنى عليه كلمات طيبات خفيفات مباركات.

3 ـ مواجهة الناس بوجههﷺ:

روى الشعبي قال: كان رسول اللهﷺ إذا صعد المنبر يوم الجمعة استقبل الناس فقال: «السلام عليكم» ويحمد الله ويثني عليه ويقرأ سورة ثم يجلس ثم يقوم فيخطب ثم ينزل وكان أبو بكر وعمر يفعلانه. وروى عدي بن ثابت عن أبيه عن جده قال: كان النبيﷺ إذا قام على المنبر استقبل أصحابه بوجوههم.

4 ـ رفع الصوت في الخطبة:

قال جابر: كان رسول اللهﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم، ويقول: «أما بعد، فإنه خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمدﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة».

5 ـ السلام على الناس من فوق المنبر:

روى جابر قال: كان رسول اللهﷺ إذا صعد المنبر سلم.

6 ـ الرد على أسئلة الناس:

عن أنس أن رجلاً قام والنبيﷺ يخطب يوم الجمعة فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فأعرض النبيﷺ وأومأ الناس إليه بالسكوت فلم يقبل وأعاد الكلام، فلما كان في الثالثة قال له النبيﷺ: «ويحك ماذا أعددت لها» قال: حب الله ورسوله، قال: «إنك مع من أحببت».

من آداب حضور الخطبة

يجب الإنصات من حين يأخذ الإمام في الخطبة فلا يجوز الكلام.

روى أبو هريرة قال: إن رسول اللهﷺ قال: «إذا قلت لصاحبك أنصت يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت».

وروى عبد الله بن عمرو عن النبيﷺ قال: «يحضر الجمعة ثلاثة نفر، رجل حضرها يلغو وهو حظه منها، ورجل حضرها يدعو فهو رجل دعا الله، فإن شاء أعطاه وإن شاء منعه، ورجل حضرها بإنصات وسكون ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً فهي كفارة إلى الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: 160].

خطبة الرسولﷺ في أول جمعة جمعها بالمدينة

قال أبو جعفر: «فأدركته الصلاة صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف ببطن وادٍ لهم قد اتخذ اليوم في ذلك الموضع مسجداً فيما بلغني، وكانت هذه الجمعة أول جمعة جمعها رسول اللهﷺ في الإسلام...».

حدثني يونس بن عبد الأعلى قال: أخبرنا ابن وهب قال: حدثني سعيد بن عبد الرحمٰن الجمحي: أنه بلغه عن خطبة رسول اللهﷺ في أول جمعة صلاّها بالمدينة في بني سالم بن عوف قال: «الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان ودنوّ من الساعة وقرب من الأجل، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصه فقد غوى وفرط وضلّ ضلالاً بعيداً.

وأوصيكم بتقوى الله فإن خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكراً، وأن تقوى الله لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما تبغون من أمر الآخرة، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية، لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 30].

والذي صدقه قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك فإنه يقول عز وجل: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [قّ: 29].

فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السر والعلانية، فإنه من يتق الله يكفر عنه

سيئاته ويعظم له أجراً، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وأن تقوى الله يوقي مقته ويوقي عقوبته ويوقي سخطه، وأن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضي الرب ويرفع الدرجة.

خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله، قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حق جهاده، هو اجتباكم وسمّاكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة ولا قوة إلا بالله.

فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه، ويملك من الناس ولا يملكون منه، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العلي العظيم».

ب ـ خطبة عيد الفطر المبارك:

تعريفها:

هي مجموعة المواعظ والوصايا والأوامر التي ألقاها الرسولﷺ بعد صلاة عيد الفطر.

فعن ابن عمر قال: إن النبيﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان كانوا يصلون العيدين قبل الخطبة.

وعن أبي سعيد الخدري قال: كان النبيﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلى فأول شيء يبدأ به الصلاة ثم ينصرف فيقوم مقابل الناس، والناس جلوس على صفوفهم فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم.

خصائص خطبة العيد

1 ـ الخطبة سنة لا يجب حضورها:

روى عبد الله بن السائب قال: شهدت مع رسول اللهﷺ العيد فلما قضى الصلاة قال: «إنا نخطب فمن أحب أن يجلس للخطبة فليجلس، ومن أحب أن يذهب فليذهب».

2 ـ الخطبة في العيد خطبتان والإكثار من التكبير فيهما:

يفتتح الخطبة الأولى بتسع تكبيرات متواليات والثانية بسبع متواليات.

وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: يكبر الإمام على المنبر يوم العيد قبل أن يخطب تسع تكبيرات ثمّ يخطب، وفي الثانية سبع تكبيرات، ويستحب أن يكثر التكبير في أضعاف خطبته.

خطبة يوم عيد الأضحى المبارك

الهدف منها:

هو توضيح النسك للمسلمين في الأضحية، وإطعام الأهل والجيران والفقراء والمستحقين منها، وحث المقتدر على أن يضحي وأنها سنة سيدنا إبراهيم عليه السلام وشكر لله على فداء سيدنا إسماعيل عليه السلام بكبش قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 107].

الخطبة:

عن البراء بن عازب قال: خطبنا النبي ﷺ يوم الأضحى بعد الصلاة فقال: «من صلّى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك، ومن نسك قبل الصلاة فإنه قبل الصلاة ولا نسك له»، قال أبو بردة بن نيار خال البراء: يا رسول الله، فإني نسكت شاتي قبل الصلاة وعرفت أن اليوم يوم أكل وشرب، وأحببت أن تكون شاتي أول شاة تذبح في بيتي، فذبحت شاتي وتغديت قبل أن آتي الصلاة، قال: «شاتك شاة لحم». فقال: يا رسول الله فإن عندنا عناقاً لنا جذعة هي أحب إلي من شاتين أفتجزي عني؟ قال: «نعم ولن تجزي عن أحد بعدك». وعن جندب قال: شهدت النبي ﷺ يوم عيد ثم خطب ثم قال: «من ذبح فليبدل مكانها ومن لم يكن ذبح فليذبح باسم الله».

خطب المناسك في الحج

خطبة يوم عرفة:

وما تميزت به أنها:

1 ـ تلقى في أرض نمرة يوم وقفة عيد الأضحى المبارك.

2 ـ تعتبر بمثابة خطبة عالمية جماعية،س قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: 27].

obeikandl.com

3 ـ تلقى وقت الظهر عند الزوال ثم يعقبها أذان الظهر...

4 ـ تلقى في الحجيج وهم في ملابس الإحرام الموحدة.

5 ـ كانت آخر خطبة خطبها الرسولﷺ ولذا فهي تذكر بأول وآخر موقف خطابي للرسولﷺ وقفه في عرفة بين جموع الحجيج.

نص الخطبة كما وردت في صحيح مسلم

«إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل.

وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكثها إلى الناس: اللهم اشهد اللهم أشهد ثلاث مرات، ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً».

خطبة يوم النحر الأول في منى يوم الحج الأكبر

تقديم الخطبة:

هي مجموعة الإرشادات التي ألقاها الرسولﷺ في حجاج بيت الله الحرام في منى أول أيام التشريق يوم «الحج الأكبر» بغرض تعليم الناس مناسك الحج.

قال أحمد: ويُسن أن يخطب الإمام بمنى يوم النحر خطبة يعلم الناس فيها مناسكهم من النحر والإفاضة والرمي. وهو مذهب الشافعي وابن المنذر.

وقال أبو أمامة: سمعت خطبة النبيﷺ بمنى يوم النحر.

وقال الهرباس بن زياد الباهلي: رأيت النبيﷺ يخطب الناس على ناقته العضباء يوم الأضحى بمنى.

خطبة يوم النحر الثاني في منى يوم الرؤوس

تقديم الخطبة:

هي مجموعة الإرشادات التي ألقاها الرسولﷺ في الحجيج في اليوم الثاني من أيام التشريق في منى بهدف تعليم الناس كيف يتأخرون وكيف يتعجلون وكيف يودعون.

سنة الرسولﷺ في خطبته:

مكان الخطبة:

خطب النبيﷺ على الأرض وعلى المنبر وعلى البعير وعلى الناقة.

افتتاح خطبه بحمد الله:

كان عليه الصلاة والسلام لا يخطب خطبة إلا افتتحها بحمد الله.

وفي مراسيل عطاء وغيره أنهﷺ إذا صعد المنبر أقبل بوجهه على الناس ثم قال: «السلام عليكم».

ما اختصت به خطبتي المناسك أول أيام التشريق وثاني أيام التشريق:

يتبين من خطبة الرسولﷺ يوم النحر في منى أنها بغرض تعليم الناس أحكام ما يجري في ذلك اليوم وهو يوم الحج الأكبر من أفعال مطلوب من الحاج القيام بها من النحر والإفاضة والرمي والحلق والحل من ملابس الإحرام.

ـ كما تختص خطبة الرسولﷺ في اليوم الثاني من أيام التشريق بتعليم الناس كيف يتعجلون وكيف يودعون.

الخطب النبوية العامة

تعريفها:

هي أقوال الرسولﷺ التي واجه بها جماعات من المسلمين موضحاً الصورة التي يجب أن يكون عليها المجتمع المسلم كما بيّنها له ربه عز وجل: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: 3].

تصنيفها: أولاً: خطب تتعلق بالتوحيد

الخطبة الأولى:

عن ابن مسعود قال: قام فينا رسول اللهﷺ فقال: «لا يُعدي شيء شيئاً».

فقال أعرابي: يا رسول الله، البعير الجرب ـ الحشفة ـ بذنبه فتجرب الإبل كلها.

فقال رسول اللهﷺ: «فمن أجرب الأول؟ لا عدوى ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها، ورزقها، ومصائبها».

الخطبة الثانية:

عن ابن عباس قال: قام رسول اللهﷺ بالموعظة فقال: «يا أيها الناس، إنكم محشورون إلى الله عراة غرلاً» ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: 104] إلى آخر الآية.

قال: «أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإنه سيؤتى برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: 117، 118]، وقال: هؤلاء ما يزالون مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم».

الخطبة الثالثة:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: بينا نحن مع رسول اللهﷺ في سفر إذ نزل منزلاً، فمنا من يضرب خباءه، ومنا من هو في جشره، ومنا من ينتضل، إذ نادى مناديه: الصلاة جامعة، قال: فاجتمعنا قال: فقام رسول اللهﷺ فخطبنا، فقال:

«إنه لم يكن نبي قبلي إلا دلّ أمته على ما يعلمه خيراً لهم ويحذرهم ما يعلمه شراً لهم، وإن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها، وإن آخرها سيصيبهم بلاء شديد، وأمور تنكرونها، تجيء فتن يرقق بعضها لبعض، تجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، ثم تجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه، ثم تنكشف، فمن سره منكم أن يزحزح عن النار، وأن يدخل الجنة، فلتدركه موتته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه، فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر».

ثانياً: خطب تتعلق بالعبادات

عن أنس قال: صلى بنا رسول اللهﷺ ذات يوم فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «أيها الناس إني إمامكم، فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود، ولا بالقيام ولا بالإنصراف، فإني أراكم أمامي ومن خلفي»، ثم قال: «والذي نفس محمد بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: «رأيت الجنة والنار».

ـ وعن ابن عباس قال: كشف رسول اللهﷺ الستارة والناس صفوف خلف أبي بكر فقال: «أيها الناس، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له، ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً، فأما الركوع فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء، فَقَمِنٌ أن يُستجاب لكم».

obeikandl.com